ليو تولستوي

الكتـــــاب	ليو تولستوي/ إيهاب سعود
المؤلـــــف	سعود، إيهاب
النــــــوع	الأدباء الروس
تصميم الغلاف	جيهان متولي
إخراج داخلي	بثينة فرج
الطبعـــــة	الأولى/ القاهرة ٢٠١١
عدد الصفحات	١٧٦صفحة
المقـــاس	١٧×٢٤
تدمـــــك	
	١- تولستوى، ليو، ١٨٢٨-١٩١٠
	٢- الأدباء الروس

صرح للنشر والتوزيع



فكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ)
برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني	darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني	www.dar-sarh.com
رقـــم الإيـــداع	٢٠١٠/٢٤٣٥٥
الترقيـم الدولــي	978-977-6382-58-9

ديوي ٩١٧, ٩٢٨

الأديب العالمي

ليو تولستوي
حياته وفلسفته وأدبه

تأليف
إيهاب سعود



أيها الحكيم الجليل «مسيو تولستوي»:

«لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقفك على الغاية التي هدى البشر إليها.. نظرت نظرةً في الدين مزّقت حجب التقاليد ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه؛ فكما كنت بقولك هاديًا للعقول كنت بعملك حاثًا للعزائم والهمم.. وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون...»

الإمام الشيخ

محمد عبده

مقدمة

«**إن أعماله خطوة إلى الأمام في التطور الفني للبشرية جمعاء**» قالها لينين حين قرأ أعمال تولستوي الإبداعية، ولا يجانبنا الصواب أيضًا إذا وسمنا أعماله وكتاباته بأنها أعمال متعددة الرؤى. حيث إننا لو نظرنا إليها من منظار فلسفي سنجد فيها فلسفة عالية انصهرت فيها الفلسفات القديمة والحديثة. وإذا نظرنا إليها في الوقت نفسه من منظار إبداعي وفنّي سنجدها بلغت درجة سامقة من حيث التجديد في أهم المعايير الفنية وعلى رأسها إطار السرد الحكائي.

وإذا نظرنا إلى كتاباته المتعددة من معيار التأثير والتأثر؛ سنجدها حققت أعلى درجات الإعلامية من حيث التأثير والتأثر دون غيرها من الكتابات؛ فمن حيث التأثر لا نكاد نجد كتابات هضمت واقع العصر المعيش مثل كتابات ومؤلفات ليو تولستوي. ومن حيث التأثير لا نجد كتابات أو مؤلفات تركت أثرًا في أكبر عدد من القرّاء على مستوى العالم كلّه – مثل كتابات تولستوي.

كان تولستوي ومازال الكاتب الروسي العظيم الذي ترك بصماته التي لا تُمحى في مسيرة الأدب العالمي، والذي خلق صورًا فنية رائعةً خالدةً، تأثر بها الأدب العربي مثلما تأثرت بها الآداب العالمية الأخرى، وخطا خطواتٍ واسعةً إلى الأمام في مسيرة الأدب العالمي، إذ قدّم له رواياتٍ، لا تقل من حيث الأهمية التاريخية، عن «إلياذة» هوميروس مثل «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩) وكان لهذا الكاتب أتباعٌ في شتى أصقاع المعمورة في فرنسا والهند وفي كل مكانٍ.

ولا نكاد نغالي أو نخرج عن دائرة الصواب إذا قلنا إنه لم يحظ كاتب - أو مبدع أو مؤلف - بشهرة واسعة في القرن التاسع عشر في روسيا أو غيرها من بلدان العالم مثلما حظي تولستوي الذي عاش ما ينيف على ثمانين عامًا؛ كان فيها شاهدًا ومشاركًا في أحداث عديدة وكبيرة الأهمية، واستطاع أن يطبع في أدبه الحياة الروسية في القرن التاسع عشر وأوائل العقد الأول من القرن العشرين بدءًا من عصر ما قبل الحرب الوطنية عام ١٨١٢م وحتى نهاية أحداث ثورة عام ١٩٠٥ – ١٩٠٧م.

واستطاع خلال هذه الفترات أن ينمّي أدبه على أرضية عصره؛ بحيث يصبح مرآة مصقولة لامعة تعكس أدواء مجتمعه كي يتمكّن من علاجها بمشاركة الجميع؛ وهذه لا شك يجب أن تكون دائمًا مهمة الأدب الفعّالة في المجتمع.

وفي حقيقة الأمر حين عرض عليّ الناشر المثقّف الأستاذ عبود مصطفى الكتابة حول شخصية تولستوي – ظننت أن الأمر سهلًا ويسيرًا؛ لأنني كنت قد قرأت أثناء فترة الجامعة بعض مؤلفات تولستوي وخاصةً اعترافاته. إلا أنني لم ألبث أن تراجعت عن الكتابة عنه فقد تملكتني الرهبة الشديدة، وحاولت أن أتعرف أكثر على شخصية تولستوي المعقدة من خلال كتبه ومؤلفاته المختلفة التي تم نقلها إلى العربية.

وبعد أن قطعت شوطًا كبيرًا في قراءة مؤلفات تولستوي توصّلت إلى نتيجة محتواها أن من أراد أن يرسم صورةً واضحة لتولستوي فعليه بقراءة كتابات ومؤلفات تولستوي كلّها وعلى رأسها اعترافاته. فهو:-

- فيلسوف كبير ومفكر بعيد النظرة في استطلاع آفاق المستقبل؛ هذا إذا نظرنا إلى كتاباته من منظار فلسفي.

- وأيضًا روائي وقاص مبدع، يتربع على القمة السامقة لشجرة الإبداع.
- وقارئ ذو عقل هاضم لا يتقبل الأفكار والأشياء على علّاتها؛ بل ينقد ويمحص ويفحص. وهو منصف؛ يقول الحق في أحلك اللحظات حتى لو كلفه ذلك فقدان حياته.
- إنسان يحب الخير للجميع؛ يسخّر قلمه دائمًا للدفاع عن الطبقات الفقيرة والكادحة في المجتمع. وهو طالب علم شغوف.. وهو ضابط من أمهر ضباط المدفعية في الجيش الروسي..
- مصلح اجتماعي له باعٌ كبير في الإصلاح، كما أنه رحالة.
- صحفي ساهٍ في التنوير والتغيير بقلمه.
- مدرّس وتربوي ماهر لأبناء الفلاحين. حيث ساعد على تغيير وتطوير نظم التعليم في روسيا.
- وهو مزارع ماهر متواضع يعمل ساعات طويلة في حقله دون أن يكلّ أو يملّ..
- وهو رجل حياته مليئة بالمتناقضات الكثيرة.. إنه –حقًّا– شخصية معقدة..!! إذا صح لنا هذا التعبير.

- **لكن في النهاية من هو تولستوي؟!!**

أقول – ولله الحمد والمنة– إنني قد عصرت ما أتيح لي تناوله من مؤلفات تولستوي العديدة؛ وذلك كي أستخلص من هذه العصارة الإبداعية، الثقافية، الفلسفية، والتنويرية ما ييسر لي رسم الصورة الصحيحة لتولستوي، وكما يجب أن تكون..

- تولستوي الأديب والمبدع..

- تولستوي الفيلسوف والمفكر..
- تولستوي الإنسان..

ومن هنا أدعوك أيها القارئ العزيز للتعرف على صورة تولستوي كما رسمتها من خلال الكتاب الذي بين يديك.. **(ليو تولستوي.. حياته وفلسفته وأدبه)**

وأنبه أن هذا العمل لا يدّعي لنفسه الكمال؛ فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطإٍ أو سهوٍ ونسيانٍ فمني ومن الشيطان، وحسبي ما بذلت فيه من جهد (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

صدق الله العظيم

المؤلف..

الفصل الأول

تولستوي الإنسان

(من الميلاد إلى الرحيل)

من هنا نبدأ

لم يكن يُسمع في سكون الليل المعتم إلا طرقات العصا التي يدبُّ بها على الأرض متحركًا في غرفته بخطى متثاقلة بطيئة دبَّ فيها الإعياء والوهن؛ فقد تخطَّى الثمانين من عمره، وتجسَّدت في جسده كل مظاهر الشيخوخة والهرم، ومع ذلك اقترب من أمتعته، وحاول أن يحزمها جيدًا بيديه المرتعشتين، بعد أن دسَّ فيها كل ما يحتاجه من كتب وأوراق وملابس قديمة وأقلام.

وكانت تقف بجواره ابنته «ساشا» التي حاولت أن تثبط من عزيمته؛ كي يرجع عما اعتزمه من الرحيل، وترك المنزل إلى حيث لا وجهة محددة ولا مقر ثابت؛ فبادرته بقولها:

- أبتي.. ألا زلت مصرًّا على ضرورة ما أنت مقدمٌ عليه؟!.

ساشا، لن نناقش هذا من جديد، يجب أن نسرع قبل أن تشعر أمك بما يحدث، تعالي ساعديني في حزم الأمتعة..

فقد اعتزم أن يسيح في أرض الله؛ كي يبحث عن الحقيقة، زاهدًا متقشّفًا؛ مستبدلًا البساطة بالرفاهية والثراء. وقبل أن يترك المكان كتب رسالة لزوجته «صوفيا» يقول فيها:

«أرجوك يا صوفيا، لا تحاولي البحث عن مكاني الذي سأذهب إليه، من أجل إعادتي...»

وبالفعل لبس الثياب البالية الخشنة وحمل أمتعته وسار لينام في أكواخ الفلاحين..

لم يكن هذا المشهد لقطة من فيلم أو مسرحية تراجيدية، ولم يكن أيضًا فقرة من قصة، ولا رواية؛ ولكنها اللحظات الأخيرة في حياة المصلح الاجتماعي والأديب العالمي والفيلسوف الحكيم ليو تولستوي.

وقد آثرت أن أبدأ الحديث عن الروائي العملاق بما يشبه الحكي الروائي؛ لكن الأهم من ذلك هو أن نعرف ما الذي يا تُرى دفع هذا الأديب الكبير إلى أن يهجر أهله وأبناءه ومنزله وضيعته؛ حيث الثراء والراحة والنعيم إلى السياحة في أرض الله الواسعة، والمبيت في أكواخ الفلاحين البسيطة الفقيرة؟!

وحتى تكون الإجابة كاملة مكتملة أرى لزامًا علينا أن نبدأ في التعرف على هذا العَلَم الكبير..

من أول السطر..

حياة تولستوي ونشأته

لحظات الميلاد

في أسرة روسية من كبار النبلاء الإقطاعيين ذات ثراء هائل، ولد أديب روسيا العالمي ليو تولستوي، وذلك في ٩ سبتمبر ١٨٢٨م، واسمه كاملًا (الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي) المسمّى اختصار بـ«ليو تولستوي»، وكان محل ميلاده هو المكان الذي سيُدفن فيه بعد ذلك وهو ضيعته التي ورثها عن أسرته وهي «ياسنايا بوليانا» في روسيا القيصرية. والتي تقع على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا من المدينة الروسية التاريخية «تولا».

وبالتالي فإن تولستوي ينتمي بأسرته إلى طبقة كبار النبلاء والإقطاعيين في روسيا؛ فوالده هو الكونت نيكولاي «إيليتش تولستوي» الذي شارك في الحرب الوطنية عام ١٨١٢م، ووالدته هي الأميرة «ماريا نيكولايفنا»، وكنيتها قبل الزواج لولكونسكايا، ومن بين أجداد تولستوي من جهة الأب (ب . آ . تولستوي) نصير بطرس الأول، وكان من أوائل الذين حصلوا على لقب الكونت، ومن جهة والدته يعود تولستوي بأصوله إلى الأسرة العريقة لأمراء فولكونسكي، والذين كانت تربطهم علاقات القربى مع أمراء؛ تروبتسكي، غوليتسني، أوديسكي، وليكوفي وغيرهم من أمراء العائلات الكبيرة.

ومن جهة الأم يصل تولستوي إلى بوشكين، وكان الأمير (ي . م . غولفين) نصير بطرس الأول جدًّا مشتركًا لهما؛ إذ كانت إحدى بناته والدة جدة الشاعر بوشكين، وابنته الأخرى والدة جدة والدة تولستوي، وبهذا الشكل يكون بوشكين الخال الرابع لتولستوي.

اليُتم المبكّر

لم يكد تولستوي يبلغ الثانية من عمره حتى ضربه اليتم بجناحه؛ فقد ماتت أمه في عام ١٨٣٠م بعد أن أتمت رضاعته. وبدأ تولستوي ينمو ويشبُّ، وحين بلغ الثامنة من عمره

وكان ذلك سنة ١٨٣٦م انتقل أبوه بالأسرة كاملة إلى موسكو؛ للعيش هناك. وكان يوم انتقاله إلى موسكو يومًا رائعًا في حياة تولستوي؛ فقد سجّل في مذكراته: «**كان يومًا رائعًا وما زلت أتذكر دهشتي عندما شاهدت الكنائس والبيوت الحكومية تلك الدهشة المصحوبة بنوع من الكبرياء، والتي كان يتحدث بها والده وهو يقوده في موسكو**»*.

وقد انعكست هذه الانطباعات الأولية عن مشاهدة موسكو في كتابات تولستوي الأولية (الكروملين) (١٨٢٩ – ١٨٤٠م) وفيها يسمى تولستوي مدينة موسكو بالمدينة الكبرى في أوربا من حيث المساحة ومن حيث عدد السكان، كما يتحدث بكبرياء وطني عن «جدار الكرملين» التي شاهدت عار وخسارة كتائب نابليون التي لا تُقهر.

وعلى كلٍّ فقد امتدت فترة إقامة تولستوي في موسكو حوالي أربع سنوات، وكان تولستوي كثير التأمّل في كل ما حوله ومن حوله، يحاول أن يرسم صورة لأمه التي لم يرها ولا يذكر أبسط ملامحها، إلا أن كل رؤاه ومحاولته كانت تتكسر على صخرة اليأس والصمت؛ فلا جد من حوله إلا الأشجار والطيور التي تحلّق في عنان السماء.

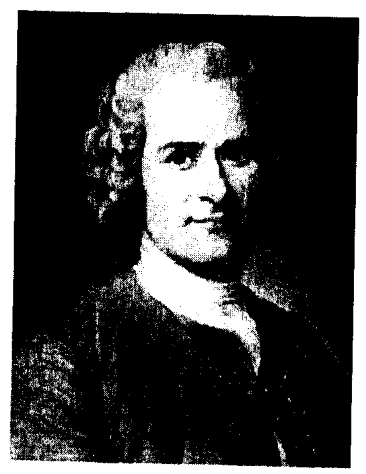
إلا أنه كان هناك غراب ينعق في أذنيه بالفقد بين الحين والآخر؛ حتى أتاه اليتم؛ كي يضربه بجناحه الآخر في حالة من الوعي الكامل لكل ملامح الفقدان؛ وبالفعل مات أبوه بعد عام من انتقالهم إلى موسكو وكان ذلك عام ١٨٣٧م. وقد شعر تولستوي بمرارة الفقد تقف غصة في حلقه؛ فيتسلى عن ذلك بأن يسبح في دوّامات من الشرود، والتفكير، يرسم عوالم لا مرئية يراها هو وحده، ويتحرّك فيها هو وحده؛ لكنه في النهاية يجد نفسه وحيدًا.

* صفحات مجهولة من حياة تولستوي صـ ١٤

والد تولستوي

ووالد تولستوي لم يكن نمطًا فريدًا في عصره؛ بل كان مدمنًا للكحول، شأنه شأن جميع أبناء طبقة النبلاء في روسيا القيصرية في ذلك الوقت؛ حيث لا دين يردع، اللهم إلا المسيحية المحرّفة المشوّهة، ولا أخلاق تنفع في صدِّ الإنسان عن الفُحش وارتكاب كل ألوان المعاصي. وربما تأمل تولستوي كثيرًا في وجه وتصرُّفات والده وجميع أبناء طبقة النبلاء من حوله؛ فارتسمت صورة كريهة لكل ما حوله حتى إنه كره البشر..

- وهل تعرف إنسانًا يكره البشر ويكره ما حوله ومن حوله؟!


جان جاك روسو

نعم إنه تولستوي الذي كره مجتمعه بكل ما فيه ومَنْ فيه؛ لأن عينه أول ما تفتحت رأت كلَّ من حوله في هذا المجتمع يكذبون على أنفسهم، وكذلك رآهم غير مخلصين بحقّ القانون الأخلاقي. وقد تحول استهجانه بعد ذلك إلى كل ما في المجتمع ومؤسساته بما فيها الدين والثقافة وهو يجري في ذلك على غرار المثال الذي وضعه أستاذه «جان جاك روسو» (٢٨ يونيو ١٧١٢-٢ يوليو ١٧٧٨)*؛ ولكنه يذهب أبعد من أستاذه في إدانته لكل العلوم والفنون.

ولم يسلم الأفراد من غضب تولستوي أيضًا ولا سيما أولئك الذين يمارسون وظائف اجتماعية كالسياسيين والبيروقراطيين والضباط المحترفين وأصحاب المهن والمحامين

* **جان جاك روسو:** فيلسوف سويسري، كان من أهم الكتاب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في ا لتعليم والأدب والسياسة.

والقضاة والمعلمين والقسيسين؛ حتى الكتاب والفنانين، وربما سيكون موقفه هذا دافع له للبحث عن الحقيقة.. حقيقة الحياة والبشر.

الانتقال إلى قازان

بعد وفاة والد تولستوي عاش تولستوي في كنف أقاربه، وكان الوصي على أسرة تولستوي هي (ا . ي . أرستن – ساكين) التي هي شقيقة والد تولستوي، غير أنها لم تكن تعتني بتربيتهم شخصيًّا؛ بل كانت قريبة بعيدة عنهم في الوقت نفسه، ولكن التي كانت تقوم على تربيتهم هي المربية (ت . آ . يرفولسكايا) التي تقوم بأمورهم، وحلَّت بالفعل محل والدتهم.

ولم تكد تمضي ثلاثة أعوام على وفاة والد تولستوي حتى توفيت الوصية على الأسرة وذلك عام ١٩٤١م. وفي هذه الآونة كان تولستوي قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، ومن هنا وافق على الانتقال مع إخوته إلى قازان مع إخوته (نيكولاي – سيرغي – ديمتري)، وشقيقته (ماريا) حيث تعيش وصيتهم الثانية عمتهم (ب . ي . يوشكوفا) ولم يكن لتولستوي وإخوته مخرج ولا مسلك آخر ويمكن لك أيها القارئ أن تتصوّر حالة تولستوي وإخوته من خلال الرسالة التي أرسلها شقيقه نيكولاي إلى زوج عمتهم «يوشكوفا» يقول فيها:

«**نحن؛ أنا وإخوتي وشقيقتي، نرجو من عمتنا أن لا تتركنا وحدنا في مصيبتنا ولتأخذ على عاتقها الوصاية علينا. يجب عليكم يا عمي أن تتصوروا مرارة حالتنا. من أجل الله يا عمي لا ترفضوا طلبنا فنحن نرجوكم من أجل الله ومن أجل المرحومين؛ فأنت والعمة سندنا الوحيد في هذه الأرض**».

وافقت العمة على قبول طلب تولستوي وإخوته من تحمل الوصاية عليهم، وأصبح تولستوي يعيش في قازان وكان الوضع هناك مختلف كل الاختلاف عن حياتهم السابقة في «ياسنايا بوليانا» أو في موسكو؛ إذ لم تكن عمتهم «يوشكوفا» تشبه بأي شكل من الأشكال قيِّمتهم السابقة «آ . ي . أوستن ساكين» ولا تشبه مربيتهم «ت . آ . يرغولسكايا» التي دعاها تولستوي في يومياته بدور المرأة الرائعة ذات الأخلاق الرفيعة.

ويعترف تولستوي بأن لعمته الأولى «تاتيانا يرغولسكايا» أثرٌ كبير في حياته وخاصةً في سنوات طفولته؛ حيث إنه تعلم منها شيئين (المتعة الروحية للحب) و(روعة الحياة الهادئة)، وقد وصف تولستوي فيما بعد عمته الجديدة بالمرأة الطيبة الورعة، وفي نفس الوقت وصفها بالمرأة ضيقة التفكير المتكبّرة.

وعاش تولستوي في قازان ست سنوات، وحضَّر نفسه مدة عامين ونصف للانتساب إلى الجامعة بعد أن قرر أن يصبح دبلوماسيًّا.

حبه للعلم

رزق الله تولستوي عقلًا هاضمًا ناقدًا؛ فلم يكن يهضم كل شيء إلا بعد نقده وتمحيصه؛ فإذا خالف عقله لفظه مهما كان مسماه علمٌ كان أو تقاليد أو دين، فلم يكن يأخذ ما يقابله ويردده على أنه علمٌ تعلمه، وهذا يفسر لنا سبب تركه للجامعة فيما بعد، وسعيه إلى تثقيف نفسه بالقراءة والاطلاع والتفكير بعد ذلك ولكن نعود إلى الأمر من أوله مرةً أخرى.

وكان تولستوي قد نشأ منذ صغره نشأةً أدبيةً معتمدة على الحَكْي؛ حيث تعرّف من صغره على الأدب العربي؛ فكان يجلس مع أطفال العائلة على فراش جدتهم يستمعون إلى ما

يقصه الفلاح العجوز الأعمى «ستيبان» من قصص ألف ليلة وليلة، والسندباد وغيرها من الحكايات العربية. وقد انطبعت هذه الحكايات في ذهنه ولازمه الإعجاب بها.

وقد شغف تولستوي كذلك بقراءة الفلسفة واللغات الشرقية ومحاولة التمعّن في أصولها؛ حتى أن ولعه بدراسة الفلسفة واللغات الشرقية أخاف المقربين لديه فقد كتبت «يوفولسكايا» في يومياتها آنذاك: «**إن ليف كائن غريب غير مفهوم في تفكيره وطبعه.. فقد احتلت دراسة اللغات الشرقية التي بدأها في قازان تفكيره لعدد من السنوات غير أنه بعد ذلك ملأت دراسة الفلسفة وقته، ليل نهار. إنه يفكّر فقط كيف يمكن أن يتعمّق في سرّ وجود الإنسان ولا يشعر بنفسه سعيدًا إلا في تلك اللحظات التي يجد فيها إنسانا يستمع إليه وإلى أفكاره التي يطورها بحماسة فائقة.**»

التحاق تولستوي بالجامعة

وفي عام ١٨٤٤م التحق تولستوي بجامعة قازان، وتقدم إلى امتحانات القبول لكلية الفلسفة، القسم الشرقي. وبالفعل نجح تولستوي في امتحانات الرياضيات واللغة الروسية والمنطق، وكذلك في امتحان اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية والتركية والترية؛ ولكنه لم يكن محضرًا للتاريخ (تاريخ روسيا القديم والوسيط والحديث) فرسب فيها وكذلك رسب في مادة الجغرافيا، وعلم الإحصاء، ونتيجة لذلك لم يُقبل في الجامعة.

ومع كل ذلك لم ييأس فظل طوال فترة الصيف في التحضير والمذاكرة مرة أخرى. وفي طريق ١٨٤٤م تقدَّم لامتحانات القبول؛ واجتازها فقبل طالبًا في الصف الأول فئة طلاب اللغة العربية - التركية.

إلا أنه بعد فترة وجيزة ترك دراسته السابقة الذكر، والتحق بكلية الحقوق في الجامعة نفسها؛ وسبب ذلك أنه اقتنع أن عمله المستقبلي كدبلوماسي لم يعد يجذبه كثيرًا.

وفي كلية الحقوق كانت الأنظمة تضايقه كثيرًا؛ بحيث أفقدت تولستوي رغبته في مواصلة الدراسة؛ فبدأ الغياب عن المحاضرات والدروس؛ لعدم اقتناعه بما يُقال في حلقة الدرس؛ لذا عوقب من إدارة الكلية بأن زُجَّ به في (غرفة القبو المظلمة ذات الأبواب الحديدية).

وفي الحقيقة.. كانت عقلية الفيلسوف الثائرة المدققة والممحّصة التي وهبها الله لتولستوي لم تكن تتقبّل الأمور لمجرد وجوده واستقرارها بين الناس في الواقع الحياتي المعيش؛ لذلك لم يلبث أن ترك الدراسة في جامعة قازان كلها؛ لأن طريقة التدريس فيها لم تعجبه؛ فهجرها إلى الأعمال الحرة عام ١٨٤٧م.

وبدأ تولستوي بتثقيف نفسه بنفسه، عن طريق القراءة الهاضمة الشرهة ثم شرع في الكتابة بعد ذلك.

وفي ربيع ١٨٤٧م قدَّم تولستوي طلبًا للجامعة يلتمس منهم السماح له بتركها وعدم اعتباره طالبًا فيها. ودعاه في وقتها عميد الجامعة وهو البروفيسور وعالم الرياضيات الروسي المشهور «ن . ي . لوباتشيفسكي»، وفي مكتبه حاول ثني عزيمة تولستوي عن ترك الجامعة فقال له: «**من المحزن جدًّا أنك لم تجد مكانًا لقدراتك الطليعية**».

ومن الجدير بالذكر أن تولستوي كان مختلفًا عن جميع أقرانه من الطلاب في الجامعة؛ فكان زملاؤه يسمونه ب (الفيلسوف) لكثرة تأمُّله؛ ولم يقتصر الأمر على زملائه؛ فقد جذب انتباه معلمه أيضًا وهو البروفيسور «د . ي . ماير» الذي وضع له يومًا ما علامة (٢/ ٥) في

مادة القانون المدني وقال عنه: «**لقد امتحنته اليوم ولاحظت عدم وجود أية رغبة لديه لمتابعة الدراسة؛ للأسف لديه وجه معبر وعينان ذكيتان حتى أنني مقتنع أنه لو امتلك الإرادة الحرة وكان مستقلًّا؛ فسيصبح إنسانًا رائعًا.**»

ولذا اقترح البروفيسور ماير على تولستوي أن يقدم عملًا مستقلًّا وهو عبارة عن إجراء مقارنة بين كتاب الإمبراطورة يكترينا الثانية «الإرشاد» مع كتاب الكاتب الفرنسي مونسكيو «روح القوانين».

وقام تولستوي في العمل بولعٍ شديدٍ وكتب مؤلفًا رائعًا وبذلك كشف عن إمكانيته الفذّة كباحث، وكشف أيضًا عن تفكيره النقدي المتمحّص.

ومن هنا لم يرغب تولستوي في إضاعة وقته في الدروس المملّة في جامعة قازان. وسجّل تولستوي ملامح الفترة التي عاشها في جامعة قازان في روايته «البعث»؛ حيث شرح فيها سبب هجر الأمير الشاب «نيخليودوف» للجامعة يقول: «**لقد ترك الجامعة دون أن ينهي الصفوف؛ لأنه كان يرى أنه لن يتعلم شيئًا في الجامعة وأن ضغط المواد اللا ضرورية وإعادة الحديث عنها في الامتحان يعتبر دون فائدة؛ بل وإهانة أيضًا...**» وكأن تولستوي يتحدث عن نفسه.

وربما كانت الحالة المزرية المتدنّية التي عليها التعليم في روسيا في ذلك الوقت هي التي دفعت تولستوي بعد ذلك إلى أن ينشأ مدرسة من ماله الخاص، ويعمل بها معلّمًا لأبناء الفلاحين؛ كي يتخرج من بين يديه أجيال يتعلمون العلم ووسائل التفكير كما يجب أن تكون؛ لأنه لاحظ بعد ذلك أن التعليم يعتمد على الحفظ والتلقين فقط، وأن التلميذ يردد الحقائق

والنظريات كالببغاء دون أن يفقه منها شيئًا؛ فإذا سألته المسألة من جهة أخرى وبطريقة أخرى غير التي حفظها يعجز عن الإجابة.

ويمكنك أن تستشفّ هذه الحالة المزرية من خلال وصف تولستوي للقسيس في القرية؛ يقول في إحدى مقالاته عن القسيس القديم الطراز في القرية: «**حتى القسيس في القرية ليس أقل ضررًا من هؤلاء المتعلّمين؛ فهو يعرف القليل وهو أخرق وعاطل وبليد؛ ولكنه يعامل تلاميذه كمخلوقات خلقها الله، ولا يعاملهم مثلما يعامل العلماء النماذج في المختبر، وهو يعمل ما يقدر عليه وغالبًا ما يكون متفسخًا ونافد الصبر جاهلًا وظالما ولكن هذه الرذائل إنما هي رذائل طبيعية بشرية**».

أولى ثمرات تولستوي

لم يطق تولستوي الجلوس في جامعة قازان بعد أن رأى الفساد يضرب بأطنابه كل شيء فيها؛ فانصرف يعمل في الأعمال الحرة ويثقّف نفسه بالقراءة الشرهة والاطلاع المبني على التمحيص والنقد لكل ما حوله، وإعمال عقله في كل ما حوله، وبدأ عقل الكاتب والمفكّر ينضج ويتبلور في داخله حتى واتته اللحظة التي أراد أن يفرز فيها بعضًا مما هضمه من مؤلفات؛ فكتب في هذه المرحلة الأولى المبكرة من حياته أول أعماله وهو (الثلاثية) التي هي بمثابة شبه سيرة ذاتية لما مرَّ به في حياته على مراحل مختلفة من عمره؛ في الطفولة والصبى والشباب؛ فكتب ثلاثة كتب على فترات زمنية متباعدة، وبدأها بكتابة (الطفولة) في عام ١٨٥٢م؛ ثم (الصبا) في عام١٨٥٤م؛ وختمها بكتابة الجزء الثالث منها (الشباب) عام١٨٥٧م.

وحقيقة نجد أن بطله الرئيس في الثلاثية «نيكولاينكا أرتينيفد» فيه ملامح شخصية كثيرة من شخصية تولستوي نفسه. فطفولته مثل طفولة مؤلف الثلاثية؛ حيث إنها تجري في منزل أرستقراطي، وهو أيضًا ذكي، ولديه خيال خصب، كما أنه يحلل أفكاره وأفعاله بشكل دائم.

ويرسم تولستوي طفولة نيكولاينكا بألوان مضيئة شاعرية ويتحدث عن روحه المتفتحة لكل انطباعات الحياة؛ لكن هاته الانطباعات كانت محصورة بدائرة العائلة ولا تخرج خارج المنزل الأرستقراطي وعندما يدخل نيكولاينكا طور الصبا يبدأ بملاحظة نواقص الناس المحيطين به ويدرك بفكره ضرورة إيجاد طريق؛ لإصلاح العيوب وقبل كل شيء إصلاح عيوبه بالذات.

لكن الحياة الواقعية والأعمال تهدم أحلامه ويبدأ نيكولا ينكا بالتراجع تدريجيا من تأثير محيطه الغبي المتكبّر المنافق المحتقر للناس غير المشهورين من بقيّة الطبقات، وهذا المحيط اللامبالي والقاسي بعلاقته نحو الخدم والأقنان.

أما قصّة الشباب فقد كتب تولستوي قسمًا هامًّا منها في البرج الرابع من حصن سيفاستوبل في ساعات الهدوء القليلة عندما تبدأ أسلحة القصف المدفعي. وقد وصفت هاته القصة سنوات دراسة نيكولاينكا وأول تنافر له مع المحيط الأرستقراطي وسعيه للاقتراب من الطلاب القادمين من الدوائر القريبة من الشعب. وقد وقف تولستوي في ثلاثيّته ضد المفاهيم الكاذبة في مجتمعه التي لقّح بها بطله من واقع مجتمعه وبيئته.

لقد ظهر تولستوي في ثلاثيته كمعلم دقيق عميق في التحليل النفسي، وقد قيّم «تشيرنيشيفسكي» هذا الجانب لدى تولستوي إلى قدراته الخارقة في تصوير (دياليكتيكية

الروح) مبينًا مشاعر وأفكار الإنسان السرية الخفيّة. وفي تعليق تشيرنيشيفسكي، على أعماق تولستوي الأولى أشار إلى أن الكاتب يعبّر بطهارة مباشرة لشعور أخلاقي، وقد توقع أن تظهر هذه السمات في مؤلفات تولستوي القادمة.

ومما يدل على حب تولستوي للحب وعشقه للمعرفة أنه بعد عامين من تركه لجامعة قازان تحديدًا عام ١٨٤٧م، ذهب وأدى امتحانًا في جامعة بطرسبورغ عام ١٨٤٩م، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على بحثه الدؤوب عن العلم والمعرفة؛ فكان بإمكانه أن يكتفي بما رآه في جامعة قازان، ولا يضره عدم تبحّره في العلم فهو من طبقة النُّبلاء في المجتمع الروسي ويعيش حياة ثريّة مرفّهة؛ لكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل ظلّ يبحث عن الحقيقة والمعرفة حتى الرمق الأخير من حياته.

ومن هنا نعرف أن تولستوي لم يتخل عن فكرة الحصول على دبلوم جامعي بعد مغادرته لجامعة قازان؛ ومما شجعه على ذلك أن إخوته الثلاثة (نيكولاي – سيرغي – ديمتري) كانوا قد أنهوا دراستهم وتخرّجوا في كلية الرياضيات في جامعة قازان، وبدأوا يحثّونه على عدم مخالفة تقاليد الأسرة. لذا عندما وصل تولستوي إلى (ياسنا بوليانا) اتخذ قرارًا أن يدرس بشكل مستقل منهاج كلية العلوم القانونية وأن يقدّم امتحانًا نهائيًا في الجامعة.

وبالفعل في عام ١٨٤٧م رسم تولستوي خطة كبيرة – وكان آنذاك في الثامنة عشر من عمره – وبدأ بدراسة جدية للغة الروسية وبعض اللغات الأجنبية الأخرى؛ إضافة للتاريخ والجغرافيا والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والإحصاء والرياضيات. وقد أورد تولستوي هاته الخطة كاملة في مذكّراته.



ليف تولستوي عام ١٨٦٢

تولستوي منظومة أهداف

وتولستوي لم يكن عشوائيًا في تفكيره ولا في كتاباته؛ بل كان يضع لنفسه قواعد هامة يسير عليه؛ كي تمكّنه من الوصول إلى هدفه وبغيته في الحياة، وكان كلما أخلّ بقاعدة من هاته القواعد نَهَر نفسه كثيرًا وندم أشد الندم، يقول: «كنت أتعس الناس إذ لم أجد هدفًا لحياتي – هدفًا عامًّا مفيدًا – فستكون حياتي عبارة عن سعي نشيط ودائم إلى ذلك الهدف الوحيد».

ومن هنا يتبيّن لنا أن تولستوي كان يضع – دائمًا – هدفًا على مرمى بصره يقول تولستوي: «في داخلي شيء ما، شيء يجبرني أن أعتقد بأنني لم أولد لكي أكون مثل البقية، لكن من أين يأتيني هذا الإحساس؟! أليس ذلك ناتج عن عدم وجود الانسجام في مؤهّلاتي أو لعلني حقيقة أقف على شيء ما أعلى من الناس العاديين؟!...».

من القواعد التي كان تولستوي يضعها أمامه دائمًا هي:

- (كن طيبًا وحاول أن لا يعرف أحدٌ أنك طيب).
- (ابحث دائمًا عن الجانب الطيب في الناس ولا تبحث عن الجانب السيئ فيهم)
- (قل الحقيقة دائمًا).

وبالفعل كتب تولستوي مطوّرًا أفكاره عن ضرورة العيش والسعي وراء هدفه فقال: «يجب على كل إنسان أن يملك هدفًا طوال حياته؛ هدفًا من أجل شهرة العصر، وهدفًا من أجل الشهرة الوقتيّة، وهدفًا لمدة عام، وهدفًا لأسبوع، وهدفًا ليوم، وهدفًا لساعة، وضحّى بالأهداف الأولى من أجل الهدف الأسمى»، ووضح لنفسه مهامًا ما انطلاقًا من تلك الأهداف الرفيعة السامية: «لتكن مفيدًا لوطنك بقدر ما تستطيع».

فقد كتب تولستوي هاته القواعد من أجل أن يبني حياته بها يتناسب معها؛ لذا كان يعاقب نفسه بقسوةٍ إذا ما حدث منه خروج ومخالفة هاته المنظومة من القواعد. وعلى سبيل المثال فإن يوميات شهر آذار عام ١٨٥١م من مذكّرات تولستوي مليئة بكشوفٍ عن حالاتٍ خالف فيها تلك القواعد، يقول: «لقد بدا الضعف عليّ كبيرًا في هذه الفترة، والأهمّ أنني لم أعر انتباهًا للقواعد الأخلاقية متّبعًا القواعد الضرورية للنجاح».

كتب تولستوي أيضًا في يوم ميلاده في ٢٨ أغسطس ١٨٥٢م: «لقد أصبح عمري ٢٤ عامًا ولم أفعل شيئًا حتى الآن، أشعر أن السنوات الثمانية التي مضت وأنا أتصارع مع الشكوك والانفعالات لم تذهب سدًى، لكن من أجل أي شيء وجدتُ هذا ما سيكشفه المستقبل)

- **وبعد عام:**

«لم أفعل شيئًا.. الكسل فقط. ويعذّبني بشكلٍ مُرعب إدراكي لكسلي.. الحياة مع الندم الدائم.. عذاب!!).

- **وبعد عام آخر تقريبًا كتب:**

«سأقتل نفسي إذا مرت ثلاثة أيام دون أن أقوم خلالها بفعل شيء مفيد للناس».

وبالتالي كان تولستوي يقدح عزيمته بالهمة وينشطها بمثل هاته الكلمات والقواعد التي يضعها أمام عينيه من وقت لآخر؛ فتولستوي من اللحظة الأولى كان ينظر إلى دراسة ذاته من وجهة نظر أخلاقية منظّمة.

الحب الأول لتولستوي

حين كان تولستوي في ميعة الشباب والصبا ضربه الهوى بجناحه؛ فأحب إحدى خادمات عمته. وهذا شيء كان مستغربًا في المجتمع الروسي في ذلك الوقت؛ لأنه كان مجتمعًا مقسمًا إلى طبقات متفاوتة من حيث الشرف والضعة، والفقر والغنى. وعادات هذا المجتمع وتقاليده كانت تحرّم زواج أبناء أو بنات طبقة النبلاء من الآخرين في طبقة الأقنان (العبيد) أو من هم على شاكلتهم من الفلاحين البسطاء الفقراء.

وهذا الفعل وإن كان مستغربًا في هذا المجتمع الطبقي إلا إنه كان مجرد شيء عادي في نظر تولستوي؛ الرجل الذي آمن بالمساواة بين الناس جميعًا ومن صغره وهو ينقم على أبناء طبقته التي يعيش فيها لما يراه من الكذب والخداع وانعدام الأخلاق؛ لذا أصرّ على حبه للخادمة التي تعيش في بيت عمته، وكأنه قال لنفسه:

- **ما الذي يمنع رجل مثلي من حب امرأة مثلها؟!!**

أليس الناس سواسية خلقهم الله من روح واحدة؛ إن الإنسان في نظر تولستوي يحكم من خلال ما هو مستقر في دخيلته؛ فالنشاط الحقيقي للإنسان هو النشاط الداخلي لروحه، وليس النشاط الخارجي كما يعبر عنه في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وحاول تولستوي أن يحطم هاته الأكليشيهات القبيحة من العادات والتقاليد في مجتمعه قبل أن يحطمها في أدبه وكتاباته؛ فبالفعل أصر على حبه لهذه الخادمة التي من المحتمل أنها كانت تبادله نفس المشاعر من الحب البريء الصافي. إلا أنه لم يكن من عمته التي كانت تمثل تقاليد الطبقة النبيلة إلا أن طردت هاته الخادمة المسكينة من بيتها، وأمرتها بالاختفاء إلى الأبد من حياة تولستوي.

وتشير مذكرات تولستوي نفسه إلى أي مدى كان معنيًّا بتلك الفتاة؛ فحبه لها قد بلغ الزبى والرُّبى، ونجد تولستوي يصرح بذلك قائلًا في مذكراته: «**أنا واقع في الحب كما لم أكن في أي وقت من حياتي وليس لدي أي فكرة أخرى سوى هذا وأنني أعاني**».

وكانت له لحظات من انعدام الاكتراث بل حتى الاشمئزاز؛ ولكن تحنانه لهذه الخادمة التي قدحت زناد الحب الأول في داخله أخذ يتصاعد في عنفوانه ويزداد اشتعالًا فنجده يقول: «**إن شعوري نحوها قد صار مرعبًا**» ثم أردف يقول بعد ذلك: «**ما أشد قربها مني.. والأمر الآن ليس هو مجرد شعور الذكر بحاجته إلى الأنثى ليقضي منها مآربه الجنسية؛ بل هو شعور الزوج تجاه زوجته**».

وشاءت الأقدار أن يتقابل تولستوي بعد ذلك بهذه الخادمة التي عشقها كثيرًا؛ ففرح بذلك فرحًا شديدًا، ويبدو أنه ظل يقابلها كثيرًا حتى بعد أن تزوج من صوفيا، كان يقابلها بعيدًا عن الأعين، وكان قد أنجب منها ابنًا صار فيما بعد حوذيًّا (سائقًا) لعربة أحد أبنائه الشرعيين من صوفيا.

وفي الوقت نفسه وبفعل واحدة من الحركات التي كان تولستوي يحب أن ينظر إليها على أنها نزاهة لا لبس فيها ولا انحراف وهي حركات غالبًا ما كانت مقصودة لإحداث الألم لدى الناس الآخرين قصدًا يدعوا إلى الإعجاب؛ فقد أظهر تولستوي زوجته على مذكراته الخاصة والتي كانت تضم بين دفتيه رسائله للخادمة التي أحبها في بداية حياته، وكان ذلك في وقت لا تزال هذه المحبوبة عشيقته ما تزال تأتي أحيانًا إلى البيت ولكن دون أن يعرف أحد علاقتها بتولستوي.

وكانت زوجته الكونتيسة صوفيا ذات طبيعة غيورة جدًّا فما كادت أن تعلم بعلاقة تولستوي بهذه المرأة إلا وأخذت تحترق من داخلها، وتقوم بحيل كثيرة كي تراقب حركات تولستوي في ضيعته؛ فكانت تتخفّى في شكل فلاحة وتسير وراء تولستوي دون أن يعرفها أحد، وتنظر هل ما زالت هذه الخادمة تأخذ تولستوي بجمالها وفتنتها.



بيت ل. تولستوي عام ١٩٠٨ في ياسنايا بوليانا

الحب الأول في إبداع تولستوي

وترك تصرف العمة أثره السلبي السيئ في نفس تولستوي؛ فعزف تولستوي عن الحب مرةً أخرى وظل يجتر لحظات حبه الأول؛ وربما يفسر لنا هذا سرُّ تأخر تولستوي في الزواج؛ فلم يتزوج حتى سن الرابعة والثلاثين من عمره؛ بل ربما يفسر لنا هذا الأمر سر صمت تولستوي لمدة طويلة بشأن أشد المواضيع شاعرية وهو الحب أو الحديث عن الحب في كتاباته وإبداعاته، وظل النقاد ينتظرون بنفاد صبر أن يكتب تولستوي عملًا أدبيًّا يهتم فيه بالحب؛ فلم يفعل إلا عام ١٨٥٩م حيث كتب قصته «السعادة العائلية» التي كان البطل فيها رجل

متقدّم في السن لا يريد أن يصرّح بحبه بالطريقة الروائية المألوفة؛ فحينما نقرأ القصة نجده يقول:

«فإنني أفكّر كيف، لا بد أن يكون وجه الملازم ستريلسكي أو ألفريد باديًا عليه الإحراج حينما يقول: «أحبك يا ألينور» ظانًّا أن شيئًا غير معتاد سيحدث فجأة؛ ولكن ما من شيء يحدث عنده، فالعيون نفسها والأنوف نفسها تظل هي ذاتها كما يظل ذاته كل شيء آخر..».

ولم يفت تولستوي أن يسجل قصة حبه الأول في إبداعاته ولكن بصورة مختلفة بعض الشيء، ونجد ذلك في روايته (البعث) التي بدأ في كتابتها عام ١٨٨٩م ولم ينته من كتابتها إلا في عام ١٨٩٩م ونشرها في نفس العام. وفي الرواية نجد الأمير «نيخوليودوف» يجد نفسه فجأةً، وقد جلس بين محكمين عليهم أن يصدروا حكمًا على فتاة تعرف أنها خادمة عمته التي أغواها في ظروف مماثلة وهجرها حينما صارت حاملًا، وقد صارت منذ ذلك الحين بغيًّا، واتهمت بجريمة قتل شنيعة كانت بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ونجد في المحاكمة أنه يجري إغفال كل متطلبات العدالة وسببه إلى حدٍّ ما هو إهمال المحكمة؛ ولكن سببه الآخر يكمن في جُبن نيخوليودوف نفسه، ولذلك فإن الفتاة تنفى إلى سيبريا.

ثم يقوم نيخوليودوف بعد ذلك باستخدام كل ما لديه من نفوذ ابتغاء نقض القرار كما يأخذ على نفسه عهدًا بأن يكفّر عن خطيئته وذلك بأن يلحق بها إلى حيث نُفيت ويتزوج منها هناك. وهو يستطيع أن يجعل الحكم عليها أخف كما أنه يصاحب المحكوم عليهم في مسيرتهم الطويلة؛ ولكن «ماسلوفا» توفّر عليه الفعل النهائي؛ ذلك أنها بعد أن عرفت عدم ملائمة الوضع بينهما تختفي من حياته، وذلك بأن تتزوج واحدًا من الذين سجنوا معها. و«نيخوليو

دوف» يصادف أن يقع على نسخة من الإنجيل (العهد الجديد) يعطيه إياها إنجيلي جوال فيتحوّل بعد قراءته إلى عقيدة تشبه عقيدة تولستوي.

وينهي تولستوي الرواية بشكلٍ مفتوحٍ لا تستطيع أن تستشف من خلاله ما الذي حدث لنيخوليودوف فيقول: «**أما كطيف ستنتهي المرحلة الجديدة هذه، فالزمن وحده كفيل بالإبانة عنه**» ويمكننا نحن أن نستشف ما حدث لـ«نيخوليودوف» إذا عرفنا ما حدث لتولستوي؛ لأن نيخوليودوف هو قناع لتولستوي.

يقول تولستوي عن الحب:

«**إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيلات. إنه قد يكون حبًّا، ولكن إلى وقتٍ قصير جدًّا، ثم لا يدوم إلا في الروايات فقط، وأما بين الناس فعديم الاستقرار في قلبين معًا، وكل رجل.. متزوجًا كان أو غير متزوج إذا اجتازت به غادة فاتنة فأكثر ما يكون منه أن يوجّه إليها التفاته وقد يبذل بعضهم كل مرتخصٍ وغالٍ بعد ذلك في سبيل الوصول إليها. والمرأة من هذا القبيل كالرجل فإنها تجتهد للاتصال بأكثر من واحد دائمًا، وما دام يمكنها هذا الاتصال فهي نائلة أربها لا محالة. إذا قلنا إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طوال الحياة فما مثلنا في ذلك إلا مثل من يوقد شمعة وهو يعتقد أنه تدوم مضيئة طول الدهر**».

تولستوي والدعوة للمساواة

انبثقت فكرة المساواة في حياة تولستوي وهو لم يزل في ميعة الصبا والشباب؛ لذا كره البشر الذين يعيشون في مجتمعه في ذلك الوقت لما رآه من مناقضات تملأ حياتهم، ولما وجده من فوارق تحكم علاقة الناس ببعضهم البعض داخل المجتمع الطبقي المنقسم إلى نبلاء لهم الحق في كل شيء وعبيد ليس لهم الحق في أي شيء إلا الأكل والنوم والعمل، وعدم التطلع

إلى ما بأيدي النبلاء؛ لذلك نجده يحمل همّ التغيير في هذا المجتمع الفاسد سواء عن طريق كتاباته وإبداعاته التي يريد أن يصور فيها للناس المجتمع كما يجب أن يكون، أو عن طريق مساهمته في بعض الأفعال التي تغيّر من المجتمع وتستبدل خيره بشرّه؛ كأن نراه يساهم كثيرًا في إغاثة المنكوبين في المجاعة، وكأن نراه يسهم إسهامًا مباشرًا في حركة تحرير الأقنان والعبيد. فتولستوي مثله كمثل أستاذه «جان جاك روسو» و«عمانويل كانت» اللذان آمنا أشد الإيمان بالقانون الطبيعي؛ فكان تولستوي مقتنعًا أشد الاقتناع بأن للبشر حاجات مادية وروحية أساسية في كل مكان وزمان ولا يمكن الاستغناء عنها؛ وإذا ما أشبعت هاته الحاجات فإن الناس سيحيون حيوات متناغمة هي هدف طبيعتهم؛ فالقيم الأخلاقية والجمالية وغيرها من القيم الأخرى هي موضوعية وخالدة وتناغم الإنسان الداخلي يستند على صلته الصحيحة مع هذه القيم.



المجتمع الروسي زمن تولستوي

وما سبق لا غرو فيه إذا علمنا أن تولستوي نفسه يقول: «**كن طيّبًا، واحرص على أن لا يعرف أحد أنك طيب لئلا يعتريك العجب، وابحث عن الجانب الطيب في كل من تعامل من الناس، وإياك أن تفتش عن الجانب السيئ فيهم، وقل الحق دائمًا ولا سيما على نفسك!**».

وأخذ تولستوي ينشر مقالاته الداعية للمساواة بين الناس وبلغ عدد ما كتب «عشرة آلاف رسالة»، حتى لقب بـ «محامي مائة مليون من الفلاحين الروس». حتى إن تولستوي أشار أكثر من مرة إلى أن حبه الأول في حياته كان للموجيك (الفلاح الروسي).

ومن هنا خشيت زوجته صوفيا أن يوزّع ممتلكاته على العاملين بها كما يدعو في مقالاتـه، فقالت له مهددة : «**يبدو أن حياتنا تسير إلى قطيعة مؤكدة. ليكن.. فأنا وأنت على تنـافر دائـم منذ التقينا.. أتريد أن تقتلني وتقتل أولادك بمقالاتك هذه؟ لن أسمح لك بذلك!**».

ولكن تولستوي مضى فيما يفعل ووضع أفكاره موضع التطبيق، ووزَّع جزءًا كبـيرًا مـن أرضه على المزارعين الذين يعملون لديه، وافتتح لأبنائهم مدارس كان يدرّس لهم فيها بنفسه، وأنفق معظم ثروته على الفقراء.

وفضلًا عن ذلك كان تولستوي يدافع بلا هوادة عـن الفرضـية القائلـة بـأن الكائنـات البشرية أكثر تناغمًا وانسجامًا في طفولتها مما تكون تحت التأثير المفسد للتعليم في الحياة التالية. وكتب تولستوي بعد ذلك في سنة ١٨٦٢م: «**(يولد الإنسان كاملًا) هذه هي الكلمة العظيمة التي نطق بها روسّو، وسوف تبقى مثل الصخرة كلمة متينة وصحيحة**».

فالمثال الإنساني عند تولستوي هو عبارة عن مجتمع قوامه أناس أحرار متساوون يحيـون ويفكّرون بنور ما هو حقيقي وصحيح، وعلى هذا فلا يكونون في نزاع بعضهم مـع بعـض أو مع أنفسهم.

وهناك أمر آخر آمن به تولستوي إيمانًا عميقًا وعبّر عنـه في كتاباتـه وإبداعاتـه المختلفـة وهو أن الناس البسطاء من الفلاحين والقـوزاق وأشـباههم يمتلكـون موقفًـا أكثـر طبيعيـة وصحّة من موقف الناس المتمدنين تجاه هذه القيم الأساسية وإنهم أحرار ومستقلون بمعنـى لا يكون معه المتحضرون كذلك؛ وذلك لأن المجتمعات الفلاحية هي في وضع يمكنهـا مـن تزويد حاجاتها المادية والروحية الخاصة بها من مصادرها هي بالذات؛ شريطـة ألا تـسرق أو تستعبد من قبل مضطهدين أو مستغلين.

بينما الناس المتحضرون يحتاجون من أجل بقائهم إلى العمل الإجباري والضروري الذي يقوم به غيرهم من الأقنان والعبيد والجماهير المستغلَّة وهي تسمى تسمية ساخرة مناقضة للحقيقة باسم (المعتمدين)؛ ولكن الحقيقة على العكس من ذلك؛ لأن سادتهم هم الذين يعتمدون عليهم، والسادة في الوقت نفسه طفيليون على الآخرين؛ فهم يذلّون ليس لمجرد أن استعباد الآخرين أو استغلالهم إنكار للقيم الموضوعية مثل العدالة والمساواة والكرامة البشرية والحب وغيرها من ألوان القيم التي يتوق الناس إلى تحقيقها – ولكنهم يذلون في نظر تولستوي لسبب أعظم وأهم من ذلك وهو أن العيش على مواد مستعارة أو مسروقة، وبالتالي الإخفاق والفشل في أن يكون الإنسان كافيًا لنفسه بنفسه.

تولستوي والماديات

يؤمن تولستوي بصورةٍ أكيدةٍ بأنّ الغنى لا يجلب السعادة ويرى أنّ المسيحي المثالي يجب أن يعيش حياةً فقيرةً: «تلميذ المسيح يجب أن يكون فقيرًا.. يجب أن يكون فقيرًا ومتشرّدًا.. بهذا بالذات علّمنا السيّد المسيح، وبدون هذا لا يمكن الدخول إلى ملكوت السماوات. وبدون هذا لا يمكن أن نكون سعداء هنا على الأرض» (١٠٠ص٤٢٦-٤٢٧).

ويؤمن تولستوي بالتخلي عن الملكية الخاصة، وبضرورة العمل، لأنّ الناس العاطلين لا معنى لحياتهم، والآخرون بغنى عن حياتهم، حتى هم بغنى عن أنفسهم.

كتب تولستوي مؤلفه «بما أؤمن؟» بحماسةٍ كبيرةٍ، وكنا نتحسس في كلّ سطرٍ إيمانًا ثابتًا بالفكر الذي يدعو الناس إليه. لاحظ ب.ي. بيريوكوف أنّ هذا المؤلف أقوى عملٍ فلسفي لتولستوي من بين أعمال تولستوي الدينية (٩٠ص٢١)

كتب تولستوي في عام ١٨٨٦ كتاب «وهكذا، ما الذي يجب علينا عمله؟» ويبدأ بتصديرٍ من أناجيل متّى ولوقا ومرقس. وكان التصدير بسيطًا واضحًا، لا يعرف ازدواجية الفهم. ويدعو فيها السيّد المسيح الأغنياء لتوزيع ثرواتهم على الفقراء، ويطلب من الأغنياء عدم اللهث وراء الثروة لأن قلب الإنسان يكون حيث ثروته. ولا يحق للإنسان عبادة إلهين فإمّا اللهّ وإمّا المال..

وعندما رأى تولستوي شقاء الناس في الملاجئ، اعتبر نفسه شريكًا في الجريمة التي تنفّذ ضد هؤلاء الفقراء. ويجيب عن سؤال «ما العمل؟» مقدمًا الحلول الثلاثة التالية:

الحل الأول: لا يجوز الكذب على النفس وعلى الآخرين.

والحل الثاني: الاعتراف بالذنب أمام الآخرين وعدم اعتبار تصرفاتنا محقةً.

والحل الثالث: ضرورة العمل والكدح والتعب وعدم الخجل من أيّ عملٍ كان.

ومن أجل الحصول على السعادة الكاملة من الضروري تغيير الحياة بصورةٍ ترضي الضمير والوجدان.

كتب تولستوي في الثمانينيات سلسلةً من القصص الشعبية، التي تحتل مكانةً مرموقةً في تراثه، وتهدف هذه القصص إلى نشر الأفكار الأخلاقية التي نادت بها تعاليم السيّد المسيح، مستخدمًا من أجل ذلك الفن القصصي، والصورة الفنية البسيطة، بحيث يستطيع قراءتها الشيخ المتقدم في السنّ والمرأة والطفل وكلّ الناس، وبعد قراءتها تدخل نسمة من الرحمة والمحبة وحبّ الخير إلى قلب القارئ.

كتب تولستوي (١١٣ ص٣٢٦) تتضمن هذه القصص تعاليم تولستوي حول عدم مقاومة الشر بالشر، والعنف بالعنف. وتنادي بسعي الإنسان نحو الكمال عن طريق تحسين الذات من الناحية الأخلاقية.

وصوّر تولستوي شخصيات إيجابيّة يعيشون حسب مبادئه الأخلاقية، من بين هؤلاء بطل الأسطورة أو القصة الشعبية «كان في القرية إنسان صادق» (١٨٨٢) «الذي عاش بمخافة اللهّ مدة ثلاثين عامًا، ولم يتخاصم مع أحد، ولم يشتم أحدًا، وعاش متواضعًا، وطلب الحسنة، ومنذ شبابه لم يقرب النساء ماعدا زوجته» (١٠٢ ص٣٢٦).

في عام ١٨٨١ في مجلة «استراحة الأطفال» نشر تولستوي أسطورة «بما يعيش الناس؟» وأخذ التصدير من الكتاب المقدس. وتنادي الآيات الإنجيلية التي تصدرت الأسطورة بضرورة المحبة ومساعدة الناس بعضهم لبعض، ومن يرفض مساعدة الآخرين، يحكم على حياته بالموت، أو الحياة نفسها تحاكمه، وتحكم عليه بالموت، ويشرح بطل الأسطورة ميخائيل لسيمون أنه عرف أنّ كلّ إنسان يعيش ليس باهتمامه بذاته وإنّما بالحبّ..» (١٠١ ص٢٤).

وفي قصة «الأخوان والذهب» (١٨٨٥) كانت عواطف تولستوي إلى جانب الأخ الأصغر، الذي هرب من مناجم الذهب، وليس إلى جانب الأخ الأكبر الذي استخدم الذهب من أجل أهداف نبيلةٍ، لأنّ العمل النبيل يرضي اللهّ ويخدم الناس وليس الذهب» (١٠١ ص٣٠).

وتتحدث قصة «إلياس» (١٨٨٥) حول الفلاح، الذي اغتنى، وعاش خمسين عامًا في الثروة والرفاهية، ولم ير السعادة. ورأى السعادة عندما فقد ثروته.

أمّا في قصة «حيث الحبّ، هناك الله» التي كتبها تولستوي في عام ١٨٨٥، فيفقد مارتين، الذي يعمل حدادًا، أقاربه، وأصدقاءه، ويبقى وحيدًا وآنذاك ييأس من الحياة. وطلب من الله الموت. وتذكّرنا هذه الشخصية بشخصية أيوب في العهد القديم.

أمّا في أسطورة «حول إيفان المجنون..» (١٨٨٥) فيبارك تولستوي عمل الفلاحين، وبنية القصة تشبه بنية القصص الشعبية الروسية. يصور المؤلف فيها ثلاثة أخوة، الأكبر والأوسط ذكيان في حين يعتبر الأصغر مجنونًا. يحب الأخ الأصغر إيفان العمل، ومتعلق بالأرض. ولذلك يخرج منتصرًا في كل التجارب الصعبة. ولا توجد في مملكته نقود، ولا جيوش ويتبادل السكان في المملكة السلعة بسلعةٍ أخرى، أو يدفعون ثمن السلعة عملًا. ولم يدفع السكان ضرائب أو إتاوات. وتبارك الأسطورة مملكة إيفان وأنظمته «وكان في مملكته عادة واحدة وهي من يعمل يأكل، ومن لا يعمل لا يأكل، من كانت يداه خشنتين بسبب العمل يحتل المكانة الأولى».

أمّا في قصة «الخاطئ التائب» (١٨٨٠) فيكتب تولستوي عن إنسانٍ عاش سبعين عامًا في الخطيئة، ولم يقم بأعمالٍ صالحةٍ أبدًا، وطلب المغفرة من اللهّ عندما كان على فراش الموت فقط، إذ كان يعلم أنّ الله رحيم غفور ويتقبل توبة التائبين ويغفر الخطايا. ويأمر الناس بمسامحة بعضهم بعضًا.

فلقد كان الرسل والقديسون مخطئين في حياتهم، ومع هذا فلقد تابوا وأصبحوا رسلًا وقديسين، لأنّ الروح الإنسانية واسعة وتستطيع أن ترتفع أحيانًا إلى السماوات وأحيانًا تسقط إلى الأرضيات، أحيانًا تقوم بأنبل الأعمال، وأحيانًا أخرى تقدم على أسقط الأعمال. فلقد أنكر القديس بطرس السيّد المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، أي قبل أن يطلع

الفجر، ومع هذا وجد في نفسه المقدرة على القيام ببطولة مرافقة السيّد المسيح في يومه الأخير، في حين هرب بقية التلاميذ. فلقد رفع القديس بطرس سيفه مدافعًا عن السيد المسيح، ولكن المسيح قال له: مايؤخذ بالسيف بالسيف يرد، أي لم يسمح المسيح باستخدام العنف. وكان النبي داود غنيًا وملكًا، ولم يحرمه الله من السعادة، ومع هذا طمع بامرأة إنسانٍ فقيرٍ، وأخذها وقتل زوجها، وبعد ذلك تاب واعترف بخطاياه.

ويطالب تولستوي بالقناعة في قصة «كم يحتاج الإنسان من الأرض؟» وينادي بالتخلّي عن الملكيّة الخاصة، والقصة موجّهة ضد الطمع، الذي يودي بالإنسان إلى الهلاك. وتركت القصة أثرًا كبيرًا على الكتّاب الأجانب -كتب ت. ماتيليوفا (١٦٩ ص١٨٩) «جذبت هذه القصة هنري مان، الذي كان يكره الملكية البورجوازية، لأنّها واضحة وصريحة، وأعجبه شكلها». وكذلك دعا تولستوي الناس إلى المحبة والتسامح، وليس إلى الانتقام. وكانت فكرة التسامح الفكرة الأساسية في قصة «الاشبين».

يمكن أن نجد نداء تولستوي إلى التخلي عن الثروة والمجد ونداءه في الحياة من أجل الآخرين، وليس من أجل الذات، في مؤلّفاته الكثيرة، على سبيل المثال «حلم الملك الشاب»، «الأب سيرغي» (١٨٩٨)، مسرحية «الجثة الحية» ١٩٠٢، مسرحية «سلطة الظلام» (١٨٩٥)، «هدم جهنم وإعادة بنائها»، «ملكوت الله في داخلكم» (١٨٩٣).

يجتمع أشخاص من قوميات وأديان مختلفة في قصة «مقهى سورات» ١٨٨٧ منهم المسلم والمسيحي الكاثوليك والبروتستانت واليهودي، ويتحدثون عن جوهر الله وكيفية عبادته. ويعتبر كلّ واحد منهم ديانته الصحيحة، في حين كانت الديانات الأخرى على ضلال. وعبّر أحدهم أن الله واحد للجميع، وأنّ عدو الإنسان كبرياؤه، الذي يحول دون وحدة الناس ويفرّقهم. فلقد أمر الله الجميع بالرحمة والمحبة، لأنّه رحيم ومحب للبشر، وغفورٌ وتوّاب.

تولستوي ضابطًا في الجيش

طرقت كلمة الحرب سمع تولستوي وهو لم يـزل طفـلًا صـغيرًا؛ ممـا دفعـه إلى حـب بطولات الصيد والحرب؛ وكان أغلب رجال عائلته في الجيش؛ فقـد كـان جـدّه وجـد جـده عسكريين. وكان والده كذلك متطوّعًا في الجيش وعمره ١٧ سنة واشترك في الحرب الوطنية لعام ١٨١٢م. وكذلك فعل شقيقه الأكبر؛ إذ تطوّع في الجيش واشترك في حرب القفقاس.

لذا حين كان تولستوي في سن الثانية والعشرين من عمره أراد أن يقدّم خدمـة لوطنـه إلى جانب الكتابة؛ فالتحق بالجندية حيث أدى امتحانًا عام ١٨٥٢م؛ كي يصير ضابط صفّ، وبالفعل اجتاز الامتحان وعُين في حملة السلاح (صف ضابط) مـن الدرجـة الرابعـة وخـدم بصفة الرتبة حوالي عامين حتى تحول إلى ضابط.

وكان الجيش الروسي في ذلك الوقت في حرب في القفقاس وشارك في بعـض المعـارك ضد جيش المريدين بقيادة الإمام شامل. لكن تولستوي أحـب القفقـاس وأثـرت فيـه حيـاة شعوبهم وكتب عن تجاربه تلك موضوعات نشرت في الصحف.

وكانت السنوات الثلاث التي قضاها تولستوي في القفقاس مليئة بالانطباعات، وقـد شكّلت أحداث القفقاس المادة لقصص تولستوي؛ مثـل: (الإغـارة) عـام ١٨٥٣م و(قطـع الأخشاب) عام ١٨٥٥م، و(التجريـد مـن الرتبـة) عـام ١٨٥٦م، وكانـت مـشاهدته لحيـاة القوزاق أساسًا للقصة التي كتبها فيما بعد بعنوان (القوزاق) (١٨٥٢ - ١٨٦٢م).

لذا كتب تولستوي في إحدى رسائله بأن القفقاس كانت بالنسبة لـه مدرسـة للحيـاة، والقرم أشد صعوبة وقسوة وتشهد على ذلك قصصه عن سيفاستوبل.



تولستوي أثناء خدمته العسكرية / ١٨٥٤ /

وفي العام نفسه - ١٨٥٢م - نشر أول جزء من ثلاثيته بعنوان الطفولة وذلك في العدد التاسع من مجلة المعاصر؛ حيث كانت صحافة أوربا في القرن التاسع عشر تقوم على تقليد شائع يتمثل في نشر روايات متسلسلة على حلقات، وكان جمهور القراء يتابعون النص السردي وتطورات حوادثه بالشوق نفسه أو أكثر الذي يتابعون به الحدث السياسي الجاري، ويتشاغلون بالنقاش في هذا كانشغالهم بالنقاش في ذاك.

وبعد أن نشر الجزء الأول من ثلاثيته بدأ نجمه يسطع في سماء الأدب والفن، وبدأ كثيرٌ من النقاد يتنبئون له بمستقبل فني باهر، وأنه سيكون واحدًا من أعظم كتاب النثر.

وشجع تولستوي ما لاقاه من قبول لدي جماهير النقاد والقراء؛ فكتب في ذلك الوقت قصة الهجوم، وشرع أيضًا في كتابة رواية (ملاك روسي) والتي لم يكملها، وأغلب الظن أنه أراد أن ينتهي من الجزء الثاني من ثلاثيته والتي سماها «الصبى».

وكان تولستوي ناجحًا في عمله كضابط صف؛ فرقي إلى رتبة ملازم بعد مرور عامين على تعيينه ونقل إلى القرم، واستمر نجاح تولستوي في عمله فرقي بعد عامين آخرين إلى رتبة ملازم أول في الجندية وكان ذلك سنة ١٨٥٦م وقد أبدى بطولة حقيقية أثناء خوضه للمعارك؛ فقلِّد وسام (آنا) المنقوش عليه كلمة (للشجاعة) وميدالية (الدفاع عن سيفاستويل) وميدالية (ذكرى حرب ١٨٥٣ - ١٨٥٦م)؛ إلا أنه شعر بعد ذلك أن عمله في الجندية يهدر من وقته الكثير؛ مما لا يعطيه فرصة للكتابة والإبداع؛ لذا نجده يستقيل من عمله في نفس العام الذي رقي فيه إلى رتبة ملازم أول.

وكانت فترة عمل تولستوي في الجندية فترة خصبة؛ حيث كتب فيها العديد من أعماله القيمة؛ فكتب الجزء الثالث من ثلاثيته والذي سماه بالشباب، وانتهى من كتابتها عام ١٨٥٦م، وكتب أيضًا في عام ١٨٥٣م قصة (ملاحظات مهدف بليارد)، وفي السنة نفسها أيضًا بدأ في كتابة رواية (القوزاق) والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م.

وربما الذي شجعه على أن يقدم استقالته أنه سافر في عام ١٨٥٥م إلى بطرسبورغ ووجد حفاوة كبيرة في استقباله، وقابل هناك العديد من الشخصيات الأدبية البارزة، كما أنه كان يحب حضور الصالونات الأدبية والثقافية، وربما كانت روتينيات عمله تعوقه كثيرًا عن مواصلة مشواره الثقافي؛ لذا لم يتردد في تقديم استقالته والتفرغ للكتابة والإبداع.

تولستوي معلمًا لأبناء الفلاحين

بعد أن استقال تولستوي من عمله في الجيش، لم يقتصر فقط على كتاباته وإبداعاته التي أسهمت إسهامًا بالغًا في التنوير وتنمية الوعي؛ بل نجده يسعى إلى إنشاء مدرسة؛ وكان في إحدى أسفاره لبلاد أوربا قد أعجب بطريقة التعليم هناك؛ فعمل على نقلها ونشرها في بلاده؛

حيث لم تكن في بلاده طرق كافية لتعليم الأطفال اللهم إلا طريقة التلقين التي تعتمد على أن يردد الطالب أو المتعلم بعض النظريات التي لا يفقه منها شيئًا.

فضلًا عن ذلك نجد أن تولستوي ترك جامعة قازان؛ لأن طريقة التدريس فيها لم تعجبه، ولأنه وجد المعلمين فيها منشغلين بالقضايا التافهة - كما سبق ذكره؛ وكل هاته الأمور لا شك دفعت تولستوي لأن ينشأ مدرسة وينفق عليها من ماله الخاص؛ كي يخرج أجيالًا تمتلك القدر الكافي من العلم ومن آلات التفكير. وبالفعل في سنة ١٨٥٩م أنشأ مدرسةً وسماها على اسم ضيعته التي يمتلكها في الريف «باسنايا - بوليانا» وعمل فيها تولستوي معلمًا لأبناء الفلاحين.

وقد تركت فترة اشتغاله بالتربية والتعليم أثرًا واضحًا في إبداعاته التي أنتجها في هذه المرحلة من حياته كما سيتبين بعد ذلك في الفصول القادمة؛ ولكن على كلٍّ أخذ تولستوي يدعو إلى تصحيح طرق التعليم في بلاده ودعا إلى تعليم شامل وأعلن حربًا ضروسًا ضد القيم الاجتماعية السائدة وضد طغيان الدول والمجتمعات والكنائس وضد الوحشية والظلم والجهل والبغاء والنفاق والضعف.

تولستوي في الثلاثين من عمره

في سنة ١٨٦٠ كان تولستوي قد تخطّى الثانية والثلاثين من عمره، وفي هذه الأثناء كان قد حاز شيئًا ما من الشهرة بصفته كاتبًا وكان قد نشر ثلاثيته (الطفولة - الصبا - الشباب)، وحكايات سواستبول وقصتين أو ثلاث أقصر من تلك، وكانت أعماله كلها قد نالت استحسانًا كبيرًا وقبولًا من القرّاء والنقاد على حدٍّ سواء.

وكان تولستوي في ذلك الوقت على صلة صداقة مع أهم وأبرز الكُتّاب والمفكرين في عصره؛ حيث كانت تربطه صلة صداقة بـ (تورغينيف) و(تيكراسوف) و(غونشاروف) و(بانابيف) و(بيزيمسكي) و(فيت).. وغيرهم من الشخصيات الهامة. وقد أدهشت كتاباته كل واحد منهم لما فيها من مذاق طازج ولحدتها القاطعة وقوتها الوصفية الباهرة وما في صورها من دقة وأصالة.

وأحيانًا أُنتقِد أسلوبه ووُسِم بأنه أخرق بربري؛ بل وحشي؛ لكنه بالرغم من كل ذلك كان واحدًا من أعظم الكتاب الشبان في عصره؛ فقد تنبأ له الجميع بمستقبل باهر، ولكن الغيرة والحسد ولدت تحفظات تجاهه منه قبل أصدقائه.

وتولستوي في الثلاثين من عمره كما رآه الناقد المشهور بونكين: «**إنني ألتقي معه كثيرًا، وقليلًا ما أفهمه كما في السابق إنه طبيعة عجيبة مدللة حماسية، وهي طبيعة لا تروق للحياة مع الناس الآخرين، إنه مليء بمختلف المؤلفات والنظريا ت** ».

وفي هذا السن – الثلاثينيات – شرع تولستوي يكثّف زيارته واهتمامه بالصالونات الأدبية والثقافية سواء منها الصالونات اليسارية أو اليمينية؛ ولكنه في النهاية لم يَبْد مرتاحًا لأي منها؛ فتركها وأخذ يفكّر في مشاريعه الأدبية الرائعة.

من صفات تولستوي

بالرغم من أن تولستوي قد تربّى ونشأ في طبقة النبلاء الثرية إلا أنه لم يرث مساوئ هذه الطبقة وعيوبها؛ بل كان ينقم كثيرًا على تصرّفات الكثير من النبلاء، وكانت أهم سمة تنماز بها شخصية تولستوي هي كبرياء النفس، وهذا الكبرياء النفسي بخلاف التكبّر؛ فشتّان بينهما؛ فتولستوي كان يسعى إلى المساواة، فكيف يكون إذن متكبّرًا!!

وشخصية تولستوي لا يستطاع لها فهمًا تامًّا إلا إذا أخذنا بالحسبان دور كبرياء النفس داخله، وكبرياء النفس فيه لا تنفصل أبدًا عن كبرياء الدّم والنشأة.

وثاني الصفات الحسنة التي تتماز بها شخصية تولستوي هي قول الصدق والحق؛ فكان لا يخشى شيئًا في سبيل قول، وسيظهر ذلك جليًّا حين نتعرف على رأيه في الإسلام، والرسول محمد ﷺ. ويظهر ذلك أيضًا من خلال نقده لمجتمعه وأبناء طبقته، ونقده أيضًا للاهوت الديني المسيحي، وتعصبه لقول الحق هنا يشبه (السيست) بطل موليير في مسرحية (كاره البشر) السيست الذي يصير كارهًا للبشر بالضبط؛ لأنه يعلم من خلال التجربة ومحنة الصلات الاجتماعية أن الحقيقة والصدق نادرًا ما يجتمعان أو هما يفعلان ذلك في حالة من الصراع والنزاع.

وثالث السمات التي تتميز بها شخصية تولستوي هي أنه لم يكن أنانيًّا، ولو كان كذلك لما دعا إلى المساواة بين الناس ولما ساهم بأعماله وكتاباته في تحرير الأقنان، ولما كان أنشأ مدرسة وأخذ يعلم فيها أبناء الفلاحين وغيرهم من الفقراء المعدمين؛ فالحقيقة عند تولستوي قابلة على الاكتشاف دائمًا ومتابعتها تقتضي أن يكون المرء طيبًا متناغمًا في أعماق نفسه سليمًا في طويته.

بالإضافة إلى ذلك فإن شخصية تولستوي يحكمها عقل ثائر لا يهدأ أبدًا ولا يقبل الأشياء على أنها حقائق مسلم بها لا تقبل النقد والتمحيص؛ ومن ذلك هجره لجامعة قازان؛ لأنه استقر في فكره أن أساتذته لم يكونوا من الكفاءة على مستوى عالٍ كما أنهم كانوا يتعاملون بالتافه من القضايا، ويحكمه أيضًا ذوق رفيع، ونفس طموحة تعشق التغيير للأفضل دائمًا.

كما أنه كان متواضعًا..

كما أنه كان متواضعًا يساعد أهل بيته في عملهم مهما كان هذا العمل. ويؤكد ذلك أنه في صيف ١٨٨٦م كتبت صوفيا زوجة تولستوي من ضيعته ياسنايا بوليانا إلى (ن. ن. ستراخوف) بأنه قد حلَّ عندهم موسم الحصاد والجميع يشارك فيه حتى تولستوي نفسه يحصد معهم ويساعدهم.

كما حمل (ريبن) - أحد أصدقاء تولستوي - بعد زيارته الأولى لضيعة تولستوي انطباعًا مدهشًا عن حب تولستوي للعمل والحياة فيقول: «**إن ليف تولستوي شغوف بشكل غريب وحار وجدي بكافة الأعمال. كنت شاهدًا على عمله الذي لا يكلّ منه في الحقول. كان يروح ويجيء في الحقل منذ الساعة الواحدة ظهرًا حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً بلا كلل وهو يوجه المحراث خلف الأحصنة، وهو يشد على نفسه نطاقًا آخر مربوطًا إلى نطاقه. وأمام الحصان بمسلقة يحرث ويشق الأرض، والعرق يتصبب منه قطرات. أما ثوبه الخيش السميك الذي يرتديه لأعمال الحقل؛ فكان مبللًا تمامًا، وهو يتابع عمله بهدوء. لم يكن الحقل مستويًا، فكان عليه إما أن يصعد الهضبة، أو أن يهبط منها بالمحراث بحذر؛ حتى لا يصيب بسكة المحراث حوافر الخيل الخلفية. وفي أسفل الوادي كانت زجاجة نبيذ أبيض ملفوفة بمعطف الكونت لحمايتها من الشمس وكان أحيانًا يجرع الكونت تولستوي منها بعض جرعات ويعود سريعًا إلى عمله. وكثيرًا ما كان يعبر بوجهه المصفرّ وخصلات شعره المبلّلة بالعرق اللاصق على جبينه وبصدغيه، وخديه يعبر عن توتر وإرهاق شديد. وفي كل مرة كان يصل إليّ كان يلقي بنظراته المرحبة السعيدة ويلقي بكلمة مازحة...**»

أما عن طبع تولستوي فإن طبعه كان طبعًا محافظًا عميق المحافظة يتخلله خيط من الهوى واللا معقولية ولكن عقله ظل هادئًا ومنطقيًا وثابت النظرة وكان يتابع القضية التي يكون بصددها متابعةً هينةً لا يخشى شيئًا، يتابعها حتى أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه من نهاية ثم يحتضنها – وجماع هذه الصفات إنما هو خصيصة إنسانية عظيمة.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه إلى شرود تولستوي المستمر وكأنه يعيش في عالم غير العالم؛ فكان دائمًا يبدو كإنسان يفكّر بعيدًا خارج المحيط الذي يعيش فيه، هذا المحيط الذي لا يعيره تولستوي أدنى اهتمام. وربما كانت الفتيات القازانيات يضحكن من خجل تولستوي وشروده الكثير حتى أثناء حضور الحفلات الصاخبة؛ فقد كتبت عنه إحدى الفتيات «**كان ليف نيكولا يفتش دائم الشرود في الحفلات ويرقص بدون رغبة في ذلك، كان يبدو دائمًا كإنسان يفكّر بعيدًا خارج محيطه، وكان يعتبر لشروده هذا شابًا مملًا من قبل الفتيات، حتى إنه لم يخطر في بال أية واحدة منا أن هذا الشاب الناعس سيصبح عبقريًا لا مثيل له في أوربا كلها**».

فقد كان تولستوي الشاب منشغلًا في كل أوقاته بالتفكير في أكبر القضايا الفلسفية ومنها قضية الحياة والوجود.

تولستوي لا يأكل اللحم

وتولستوي في أخريات حياته زهد في الحياة زهدًا كبيرًا رفيعًا؛ لدرجة أنه منع نفسه أكل اللحوم في السنوات الأخيرة من حياته ما بين عامي ١٨٨٥-١٩١٠م فلقد عاش ربع قرن نباتيًا، وهي السنوات الخمس والعشرون الأخيرة من حياته، وحاول الإقلاع عن التدخين، وحقق ذلك، وكذلك حرّم تعاطي المشروبات الكحولية وكتب في هذا المضمون في أكثر من

مكان.. وبدأ يلبس الخيش والثياب الخشنة، وتتوق نفسه في كل وقت إلى الانعزال عن الآخرين في كوخٍ لا يعرفه أحد.

فتولستوي في أخريات حياته حاول أن يعيش كما عاش سابقًا السيّد المسيح، حاول أن يقترب من الكمال، وأن يعلم الناس بالكلمة وبالقدوة، واستند في تعاليمه إلى تعاليم السيّد المسيح، التي تتوجه إلى قلب الإنسان وعواطفه ومشاعره وإلى ا الجانب الروحي في الإنسان أكثر من توجهها إلى الجانب المادي. حاول تولستوي أن يكون كالمسيح، ولكن في القرن العشرين

تولستوي داعية السلام

لقد أدان تولستوي الحرب وجرائم القتل، حيث عاش في القوقاز في بداية الخمسينيات، وانخرط في السلك العسكري. واشترك في مجموعة من المعارك التي قدمت مادةً جيدةً لمؤلفاته، مثل «سيباستوبول في شهر كانون الأول» (١٨٥٥م)، و«سيباستوبول في أيار» (١٨٥٥م) و«سيباستوبول في آب» (١٨٥٦م)، «القوزاق» (١٨٦٣م) «الغارة» (١٨٥٣م) و «قطع أشجار الغابات» (١٨٥٥م) وراويته الخالدة «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩م).

كتب ليف تولستوي في مطلع حياته الأدبية في قصته «المراهقة» (١٨٥٤) بلسان نيكولينكا- بطل القصة حول الحرب: «هل يعقل أنّك أنت حاربت- سألت بدهشة- هل يعقل أنك أنت أيضًا قتلت الناس؟ سأل نيكولينكا باستغرابٍ كارل إيفانوفتش» (٩٤ص٢٧) . انتقل تولستوي في عام ١٨٥٤ إلى جيش دوناي، ومن ثم إلى سيباستوبول، المحاصرة من قبل الجيوش الفرنسية والإنكليزية. واشترك ليف تولستوي في هذه المعارك وكان في الموقع الرابع، أكثر المواقع خطورة. كما أدان تولستوي الحرب الدفاعية والهجومية،

وتبلورت هذه الأفكار، خصوصًا، في السبعينيات، لكن بذورها كانت موجودةً في أدب تولستوي منذ أيامه الأولى.

قيل عن تولستوي

كتب نيكراسوف إلى بوتكين في يوم من الأيام بعد لقائه الأول مع تولستوي (لقد حضر [ل .ن . ت] أقصد تولستوي إنه إنسان لطيف ذكي وأنا بطيب خاطر أقول، لقد أعلن تولستوي منذ وصوله من محطة القطارات إلى منزل «تورغينيف» عن رغبته باللقاء معي لقد قضينا ذلك اليوم سوية وتحدّثنا كثيرًا. إنه شاب أصيل لطيف نشيط، صقر، ويمكن أن يكون نسرًا ويبدو لي أنه أرفع مستوى من كتاباته مع أنها جيدة.. ليس جميلًا، لكن لديه وجه جذاب وحيوي، وبنفس الوقت لديه الليونة، والأصالة الروحية التي تظهر واضحة عليه لقد أحببته جدًا وقد وعدني أن يجلس ويكتب للعدد الأول من (المعاصر).

وكتبت أيضًا إحدى قريباته وتدعى (آ. آ. تولستايا): أراه في ذاكرتي بوضوح تام عندما عاد من سيفاستوبل عام ١٨٥٥م كضابط مدفعية شاب، وأتذكر كل انطباع لطيف تركه على الجميع بحضوره. وكان آنذاك معروفًا من قبل الجمهور، وكانت قصته (الطفولة) قد ظهرت عام ١٨٥٢م. وكان الجميع معجبين بهذا الإبداع الرائع، أما نحن فكنا نفتخر به بموهبة قريبنا مع أننا لم نتصور شهرته في المستقبل ستكون بهذا الحجم الكبير. وكان تولستوي بسيطًا ومتواضعًا بشكل غير اعتيادي، وكان مزاحًا ويبعث الحياة لدى الجميع بحضوره، ولا يتكلم عن نفسه إلا القليل، لكنه كان ينظر إلى كل وجه جديد بانتباهٍ خاص، وبعد ذلك يتحدث بشكلٍ ساخرٍ مضحكٍ عن انطباعاته التي كانت دائمًا تحمل طابع التطرّف، وكان لقبه (ذو الجلد الرقيق) الذي أطلقته عليه فيما بعد زوجته صوفيا أندريفنا يليق به تمامًا؛ إذ سرعان ما

كانت تظهر عليه آثار أي مسحة جديدة استبدلها في داخله خاسرًا أم رابحًا. وكان يبصر للناس بغريزته التمثيلية وكانت تقديراته للأمور مصيبة في أكثر الأحيان بشكلٍ مدهش. أما وجهه فلم يكن جميلًا، لكن عيونه الذكية الطيبة المعبرة كانت البديل الجمالي، ويمكن القول إن ذلك كان أفضل من الجمال... لقد أحببناه كثيرًا حتى إننا كنا نستقبله بسعادة وحيوية فائقة....)

الصداقة في حياة تولستوي

من المعروف عن تولستوي أنه كان عنيدًا في أفكاره، متمسكًا برأيه ما دام لم يتبين له خطؤه، وكان في بعض الأحيان وحشيًّا على نحو غير متوقع وخاصةً في فترة شبابه، ونتيجة كل ذلك أن انفضّ أصدقاؤه من حوله وأخذوا يعاملونه باحترام عصبي، ولعل تولستوي هو الذي هجر أصدقاءه؛ لما رآه من حقد وحسد في أعينهم تجاهه؛ ففيما عدا الشاعر «فيت» الذي كان نفسه رجلًا محترمًا من رجال الريف على شيء من الغرابة وشيء كثير عميق من الروح المحافظة؛ فيما عدا هذه الشخصية كنت بالكاد تجد صديقًا لتولستوي من بين الكتاب من أبناء جيله.

وقطع تولستوي أيضًا صلاته مع تورغينيف، وهو أمرٌ بالغ الشهرة، وكان على بُعد أعظم عن رجال الأدب الآخرين، وكانت هناك أوقات تعلَّق فيها بفاسيلي بوتكين وكان يحب نكراسوف أكثر من حُبّه لشعره؛ ولكن من جهة أخرى كان نكراسوف ناشرًا عبقريًّا وقد أعجب به وشجّعه منذ بدايات أعماله (أي أعمال تولستوي).

وبالرغم من أنه خاض غمار صراع فكري عنيف مع أصدقائه إلا أنهم شهدوا له بالموهبة وخاصةً تورغينيف الذي كتب إلى شقيقة تولستوي (ماريا) عن الانطباعات التي أحدثتها قصة الصبا عند مجتمع القراء: (**لقد أصبح ليف نيكولا يفيتش برأي الكثيرين في صف أفضل كتابنا.. وعليه أن يكتب شيئًا آخر بهذا الشكل؛ ليحتل المكان الأول الذي يستحقه، وينتظره**) وليس تورغينيف وحده من شهد لتولستوي بهذا الأمر، فقد كتب نيكراسوف إلى تولستوي أيضًا ورأى فيه أملًا عظيمًا للأدب الروسي. من هنا فإن معاصري تولستوي الثاقبي النظرة قد توقّعوا له بمستقبلٍ عظيمٍ من خلال أعماله الأولى، وقالوا: إن الأدب الروسي رفد بموهوب كبير هو تولستوي الذي سيتربّع عن قريب على عرش الأدب الروسي الذي ظنّ الجميع أنه انهار بموت غوغل (١٨٠٩- ١٨٥٢)*.



الأديب الروسي غوغل

وقد وصف تولستوي علاقاته بأصدقائه «**لقد خدعتُ نفسي طويلًا متصوّرًا أنني أملك الأصدقاء وأن لي أناسًا يفهمونني.. هراء! لم ألتق حتى هذا الوقت إنسان واحد ذي أخلاق حميدة مثلي، وأنا الذي لا أذكر أن مرَّ حدثٌ في حياتي لم أولع به بطيبة قلب ولم أكن جاهزًا للتضحية من أجله بكل شيء**».

* نيقولاي فاسيليفتش غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي. وُلد في الأول من أبريل ١٨٠٩م، وتوفي في ٤ مارس ١٨٥٢م. من أعماله الأكثر شهرة رواية النفوس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين "المفتش العام" و"خطوبة".

وبقدر ما كان هؤلاء الأصدقاء هم المجتمع فإن تولستوي يضع عليه علامة سلبية يقول «**ولهذا لا أعرف مجتمعًا لم أقاس منه أنني أشعر دائمًا أنهم يأخذون تعابير أفكاري القلبيّة بمأخذ الكذب، وهم لا يستطيعون أن يتصوّروا أنها لا تراعي مصالحي الشخصية**».

غير أن خيبة الأمل في الأصدقاء والمجتمع لم تحمل تولستوي آنذاك أو فيما بعد إلى حالة الوحدة المتكبرة. ومعروف أن أول صفحة من صفحات يوميات الشباب؛ خصصها تولستوي لموضوع الفرد والمجتمع.

زواج تولستوي

وكان هجران تولستوي لأصدقائه أو هجرانهم له ربما كان دافعًا له؛ كي يبحث عن الارتباط والزوج بمن تشجعه على الكتابة والإبداع، وبالفعل في عام ١٨٦٢م، تزوج تولستوي من «صوفيا أندريفينا» وعاشا حياة سعيدة؛ حيث تزوجّا بعد قصة حب وكانت صوفيا في السابعة عشرة من عمرها، وتولستوي في الرابعة والثلاثين، وقد أنجبا ثلاثة عشر طفلًا، مات منهم ثلاثة.

كانت صوفيا متعلّمة ومثقفة؛ إذ تخرجت في جامعة مرموقة، إضافة إلى إجادتها عدة لغات غير الروسية، شأنها في ذلك شأن بنات الطبقات الأرستقراطية، فقد كانت تجيد الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية، وكان يقول عنها تولستوي أنها «زوجة مثالية».

وقبل زواجها نشرت بعض الكتب الأدبية من تأليفها، وبعد زواجها استخدمت إمكاناتها الثقافية في مساعدة زوجها، الذي قال عنها إنها «الزوجة المناسبة تمامًا للكاتب». فقد كان يملي عليها مؤلفاته، وكانت تبذل الكثير من الجهد لنسخ مسوّداته وإعدادها للنشر، وكان تولستوي يستشيرها في تصويره لبعض شخصياته النسائية، فكانت تقدم له ملاحظاتها الدقيقة التي استفاد منها في رواياته المختلفة.

وكانـت «تاتيانـا أنـدرييفنا بـيرز» أخـت صـوفيا زوجـة تولـستوي تعـيش معهـا في ياسنايابوليانا ضيعة تولستوي، وكانت في السادسة عشرة من عمرها حـين تـزوّج تولـستوي بأختها.



وكانت فتاة مرحة جذابة، وكان تولستوي معتادًا عـلى أن يقـول لهـا: إنهـا تـدفع أجـرة مقامها بكونها تجلـس أمامـه كنمـوذج لأدبـه، وبعـد أن تزوجـت اسـتمرت في زيـارة أسرة تولستوي جالبةً معها أسرتها؛ لتحل ضيفةً عليهم في أشهر الصيف.

وكانت تاتيانا شديدة التعلق بتولستوي تحبه كثيرًا وتحبُّ ضيعته ياسنايا بوليانا التي تقع في الريف؛ حتى إنه بعد أن توفي زوجها سنة ١٩١٧م ذهبت لكي تعيش مـع ابنـة تولـستوي الكساندرا، وكتبت كتابًا عن تولستوي سمته بعنوان (تولستوي كما عرفته).

وكان تولستوي قد استمد من شخصية «تاتيانا» نموذجًـا رئيـسيًّا لشخـصية ناتاشـا في رائعته الحرب والسلام.

مفارقات في حياة تولستوي

ومن المفارقات الهامة في حياة تولستوي أنه ولد نبيلًا، وظل أرستقراطيًّا في مزاجه حتى بعد أن اعتنق قضية الإنسان العادي وشرع في الإشادة بالفلاح الروسي مؤثرًا إياه على كل الطبقات وكل أنواع الكائنات البشرية. وقد اقتضى لرجل من العامة وإنسان بروليتاري هو «ماكسيم غوركي» أن يحذر أنه حتى الندبة الروحية في تحول تولستوي الديني لم تستطع أن تخنق فيه الإحساس إلا شعوري بأنه ينتمي إلى سلالة السادة؛ فتولستوي بالرغم من أنه قد عاش مثل أي رجل من عامة الشعب وارتدى ما يرتديه ورفض أن يخاطب بلقب الكونت إلا أنه ظلت في أعماقه روح الكبرياء الإنساني.

وثاني المفارقات في حياة تولستوي تكمن في أن كلًّا من ولادته ومزاجه جعلا منه محافظًا بينما كان عقله وإيمانه قد حولاه إلى شخص راديكالي. فقد كان تولستوي راديكاليًّا أخلاقيًّا لا راديكاليًّا اجتماعيًّا، وتلك حقيقة لم تكن واضحة تمام الوضوح لدى أتباعه ومريديه، ولكنها في الوقت نفسه حقيقة لم تخف عن ملاحظة «لينين» المفعمة بالصحو. فلقد آمن لينين بأن تفكير تولستوي ووعظه كانا أبوين تسلطيين في طبيعتهما ورجعيين في روحهما.

ويمكننا أن نقول إن تولستوي كان أقرب مشابهة بالسيد الإقطاعي الذي استبدل السيف بالصليب بينما كان محافظًا على طبيعته المتعالية تحت مسوح الراهب. والتغيير الوحيد الذي كان يراه تولستوي مهمًّا وممكنًا وضروريًّا هو تغيير القلب، وقد مرَّ هو نفسه بمثل هذا التغيير، وأحس أن الناس من حوله قادرون على أن يفعلوا ما فعله، وكان راغبًا؛ بل كان توّاقًا في أن يساعدهم في الوصول إلى تلك الغاية التي وصل إليها.

فما كان يعظ به تولستوي دائمًا هو أن الآخرين ينبغي عليهم أن يغيروا أنفسهم أو يحولوها مثلما حولها هو (أي يهتدوا).

وكان تولستوي يرى دائمًا أن كل إنسان يستطيع إلى الأبد أن يشعر مثلما شعر قسطنطين ليفين، وهو أحد أبطاله الأثيرين لديه، ففي لحظة معينة من تجربته الشخصية الخاصة يقول: «**لقد أحس أنه هو نفسه ولم يرد أن يكون أي كائن آخر وكل ما أراده هو أن يكون أفضل مما كان من قبل**» ويبدو أن هاته الكلمات تبرهن على أن تولستوي لم يعتقد جديًا بأن الطبيعة البشرية يمكن لها أن تتغير تغييرًا جوهريًا.



تولستوي مع أسرته وأثناء العمل

تولستوي ومعارضة الكنيسة

ولم يكن بإمكان تولستوي المفكر والممحص الذي تعوّد أن يهضم ما يقرأه أو يسمعه هضمًا جيدًا – أن يتقبل أفكار وآراء الكنيسة على علّاتها والتي طلبت منه أن يلغي عقله؛ لذا تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما.

ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة كبيرة؛ فكفّرته وأبعدته عنها وأعلنت حرمانه من رعايتها. لقرار المجمع المقدس بحرمان ليف تولستوي من الكنيسة الذي صدر في ٢٠ شباط عام ١٩٠١ والذي نشر في جريدة «أخبار الكنيسة» وجاء في القرار: **«...وفي أيامنا هذه ظهر معلمٌ كاذب هو الكونت تولستوي... وقد أنكر علانية أمام الجميع أمّه الكنيسة الأرثوذكسية التي هذّبته وثقّفته وكرّس جميع مواهبه وقواه العلمية لنشر التعاليم المضادة للمسيح والكنيسة؛ ليزيل من عقول الناس وقلوبهم إيمان آبائهم.... وهو ينكر الله الحي في الثالوث الأقدس الممجد خالق وضابط المسكونة، وينكر الرب يسوع المسيح الإله والإنسان.... ولا يعتقد بالحياة بعد الموت ولا بالعقاب والثواب»**

ووقّع على القرار كل من المطارنة: مطران بطرسبورغ ومطران كييف ومطران موسكو ومطران وارسو وغيرهم.

أمّا عن ردة الفعل التي أحدثها القرار المذكور؛ فلقد قامت المظاهرات وطالب الكثيرون من أتباع تولستوي المجمع المقدس بحرمانهم معه. أمّا الكثير من الشعب فوقف مع المجمع المقدس وضد تولستوي ولذلك فلقد أرسلت زوجة الكاتب الروسي رسالةً إلى مطران بطرسبورج بصفته رئيس المجمع المقدس قالت فيها مدافعة عن زوجها: «.....**أما إذا**

كان القصد من حرمان ليف نيكولايفتش تنفير الناس منه واستمالتهم عنه، فهو خطأ واضح؛ لأن جميع الناس زادوا تعلّقًا به وميلًا إليه وسخطوا من هذا الحرم، ولا تزال تردنا الشواهد على ذلك من جميع أقطار العالم».

واستنكرت صوفيا أندريفنا زوجة تولستوي القرار السري الذي أصدره المجمع المقدس والذي يمنع الكهنة من الصلاة على جثة تولستوي بعد مماته ويمنع دفنه بموجب طقوس الكنيسة. وأجابها مطران بطرسبورج بما يلي: «.... **ولذلك نقدر أن نقول كلمة «واحدة» عمن ينكر المسيح وهو أنّه ينتقل من الحياة إلى الموت وعلى ذلك يتوقف هلاك زوجك....**».

ويرى المطران المذكور أن تولستوي نفسه لا يريد أن يدفن بحسب الديانة المسيحية. وردَّ ليف تولستوي على قرار المجمع المقدس؛ لأنّه استلم مجموعة من الرسائل تهدده بالقتل. فكتب له أحد الناس: «**ستموت الآن كالكلب....**». وكتب له آخرون بأن على الحكومة زجّك في السجن وإن لم تفعل ذلك؛ فنحن نجبرك على السكوت. ويكتب تولستوي أنّه خرج إلى الساحة العامة في موسكو في الخامس والعشرين من شهر شباط، وهو اليوم الذي أذاع به المجمع المقدس قرار الحرمان فاستقبله الجمهور باللعنات والشتائم، وضربه بعضهم.

ولا ينكر تولستوي في ردِّه على المجمع المقدس أنّ الكنيسة أخفت إخفاءً تامًّا جوهر التعليم المسيحي. ويذكر تولستوي أنّه كتب لجميع أقاربه؛ لكي يطرحوا جثته الجامدة بعد موته بدون أن يصلي عليها أحد كما يطرحون الشيء الفاسد الذي لا لزوم له لكي لا يزعج الناس بوجوده.

وقد أُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقرّه بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركًا عائلته الثرية المترفة. وهو كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المقاومة

السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب «مملكة الرب بداخلك» وهو العمل الذي أثّر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج في جهادهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

أساتذة أثروا في تولستوي

كان هناك مجموعة من الأساتذة والعلماء والأدباء تركوا أثرًا واضحًا في حياة تولستوي العقلية وفي أدبه وفكره؛ فمن معلميه ستيرن، وبرناردان دوسان بيير، وفرانكلين، وبوفون، وغولد سميث. والجزء الأول من ثلاثيته (الطفولة) يعكس لنا تأثير «توپفر» عليه الذي نشأ في ذلك القرن الثامن عشر، أما في كتابه صور أولية من سواستبول؛ فقد تأثر فيه تولستوي بستندال الذي يعد آخر أهم شخصية من رجال القرن الثامن عشر.

تأثّر تولستوي بكل هاته الأسماء اللامعة إلا أن تأثره بـ«جان جاك روسو» قد فاق كل تأثّر آخر؛ فقد أحبّ آراء روسو وأعجب بها أكثر مما فعل تجاه آراء أي كاتب آخر، وهو مثل روسو رفض عقيدة الخطيئة الأولى، وآمن بأن الإنسان قد ولد بريئًا ولكن ما دمره هو مؤسساته السيئة ولا سيما تلك التي تدعى بمؤسسات التعليم بين الناس المتحضرين. وهو مثل روسو أيضًا في وضعه اللوم بسبب هذه العملية من الانحطاط على المثقفين بالدرجة الأولى وعلى المؤسسات التي يسندونها، ولا سيما تلك النخبة من الخبراء والزُّمرة المعقّدة وهم بعيدون عن الإنسانية العامة، ومتغربون عن الحياة الطبيعية.

وهؤلاء الناس في نظره ونظر تولستوي ملعونون؛ لأنهم افتقدوا أثمن كل الممتلكات البشرية؛ القدرة التي يولد الناس جميعًا بها، وهي أن يروا الحقيقة التي لا تتزحزح، الحقيقة الخالدة التي يصورها المشعوذون والسوفسطائيون وحدهم على أنها تتغير بتغير الظروف والأحوال والأزمان والأمكنة، الحقيقة التي لا يراها رؤيةً تامةً سوى الأبرياء أولئك الذين لم

تفسد عيونهم ولا قلوبهم.. يراها الأطفال والفلاحون، أي أولئك الـذين لم يعمهـم الغـرور الكاذب ولا الكبرياء، ويراها البسطاء والطيّبون، كذلك نقية صافية من كل كدر.

(الشهرة وذيوع الصيت)

استطاع تولستوي أن يحقق بما تركه من كتابات ومقالات وأعمال إبداعية ومؤلفات في مختلف نواحي الفكر والحياة – شهرة واسعةً لا مثيل لها، وقلّما يقيدها الحظ لكاتب أو فنان. بل إن الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن تولستوي استطاع بأعماله وآرائه أن يخترق موطنه روسيا إلى عقول وقلوب قراء العالم أجمع، ويمكن أن يتجلى لنا ذلك إذا عرفنا أن عدد الرسائل التي أُرسلت إلى تولستوي في ضيعته ياسنايا بوليانا من قبل الكتاب الروس والأجانب يتجاوز خمسين ألف رسالة (٥٠٠٠٠ رسالة) وتوجد في أرشيف تولستوي الآن ما يقرب من عشرة آلاف رسالة (١٠٠٠٠ رسالة) كتبها تولستوي إلى شخصيات مختلفة.

وتولستوي نفسه أحس بهذه الشهرة العارمة وخاصةً في أعوامه العشرة الأخيرة؛ لذا صرح بأنه يجب عليه أن يسعى للعمل والإبداع بجد من أجل الملايين من الناس في مختلف بقاع الأرض. كما أنه سمى أعماله الفنية والصحفية بـ (رسائل جامعة)؛ لأنها في حقيقتها موجّهة إلى ملايين القراء؛ لذلك كان جديرًا بأن يلقّب من قبل الأمريكيين بـ (مواطن العالم).

وكذلك اختتم رومان رولان كتابه (حياة تولستوي) عام ١٩١١م بقوله: (لم يتوجّه تولستوي بحديثه أبدًا إلى المفكرين الكبار؛ بل كان يحدث من أجل الناس البسطاء) لذا ليس بعجيب أن يتلهّف الناس على كتابات تولستوي، وتغدو ضيعته ياسنايا بوليانا مزارًا للملايين من الناس.

وأرى أنه لزامًا علينا أن نعرض بعض الرسائل العربية التي أرسلت إلى تولستوي من العلماء، الكتاب والمبدعين العرب؛ لنداّل بها على مدى ذيوع تولستوي في العالم العربي.

رسائل العرب إلى تولستوي

وقد بدأت هذه الرسائل تصل إلى تولستوي من الأدباء والكُتّاب العرب الذين اهتموا بشخصية تولستوي وكتاباته – منذ عام ١٩٠١م وكان تولستوي قد أجاب على معظمها وأبدى تعاطفه مع أصحابها.

١- رسائل الإمام محمد عبده إلى تولستوي:

وكان الإمام العلم الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م) مفتي الديار المصرية ورئيس جامعة الأزهر من الذين اهتموا بشخصية تولستوي وبكتاباته وأفكاره، وهو في الحقيقة يُعد أول الكتاب العرب الذين تبادلوا الرسائل مع تولستوي (١٨٢٨ – ١٩١٠م). وكانت مناسبة رسائل الإمام علمه بحرم المجمع الكنسي المقدس لتولستوي عام ١٩٠١، من الكنيسة لنقده لها بوجهٍ عامٍ في مؤلفاته العديدة، وبوجهٍ خاصٍ في روايته «البعث»، التي صدرت في عام ١٨٩٩م. لذا كتب الشيخ محمد عبده رسالةً لتولستوي بتاريخ ١٨ نيسان عام ١٩٠٤، ويرى النّقاد السوفييت، الذين أعدّوا المؤلفات الكاملة لتولستوي، والتي بلغ مجموعها تسعين مجلدًا، أنّ رسائل المفكر العربي محمد عبده إلى تولستوي مفقودة، ويوجد لديهم جواب تولستوي على رسالة محمد عبده.

ومن خلال رسالة تولستوي الجوابية إلى محمد عبده يتوقّع النقّاد السوفييت أنّ رسالة محمد عبده تتعلّق بأمور الدين. كتب النقّاد السوفييت رأيهم هذا في شرحهم لرسالة تولستوي الجوابية لمحمد عبده. علمًا بأنّ رسالة الشيخ محمد عبده، إلى تولستوي محفوظة بخط محمد عبده وباللغة العربية في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، وتحمل الرقم (٢٠٤/ ٥). ونشرت الرسالة المذكورة مع رسالة أخرى من محمد عبده إلى تولستوي في المجلد الثاني من الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده.

- رسالة الإمام الأولى:

«أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي.. لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نورٌ من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، أَلَّفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سرِّ الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقّفك على الغاية التي هدى البشر إليها؛ فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود؛ لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسك وسعيًا يبقى به ويربّي حسنه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

نظرتَ نظرةً في الدين مزقتْ حُجُب التقاليد ووصلتَ بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعتَ صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل؛ لتحمل نفوسهم عليه؛ فكما كنت بقولك هاديًا للعقول كنت بعملك حاثًّا للعزائم والهمم. وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء كان مددًا من عنايته للضعفاء الفقراء، وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد؛ فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين؛ فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم.. هذا وإن نفوسنا لشيّقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمدَّ في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب؛ لفهم قولك ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك والسلام».

الرسالة الثانية للإمام

- وهي لا تختلف كثيرًا عن الرسالة الأولى، ويخاطب فيها محمد عبده تولستوي قائلًا: «أيّها الروح الذكي، صدرت من المقام العلي إلى العالم الأرضي، وتجسّدت فيما سموه بتولستوي، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عما تسمو إليه نفسك..... وأدركت أنّ الإنسان خُلق ليتعلّم فيعلم فيعمل، ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل».

رد تولستوي على الإمام محمد عبده

فلم تكد رسائل الإمام الشيخ محمد عبده تصل إلى تولستوي حتى أجاب عليها بقوله: «الآن استلمت رسالة المفتي واعترف لك بالجميل والامتنان؛ لأنك حملت لي هذه الرسالة. إنّ المفتي يمتدحني كثيرًا في رسالته على الطريقة الشرقية، ولذلك فإنّني أجد صعوبةً في الإجابة على هذه الرسالة، وإنّني مسرور جدًّا، بمعرفتي بهذا الإنسان اللطيف.. أيّها الصديق العزيز، لقد استلمت رسالتك الطيبة والمليئة بالمديح وأجيبك عليها مباشرةً لكي أؤكد لك بأنّني سررت بها كثيرًا، أعتقد، ولا أُخطئ في اعتقادي، وذلك من خلال قراءتي لرسالتك، أنّ العقيدة التي أؤمن بها هي نفسها العقيدة التي تؤمن بها نفسها، وتتلخص في الاعتراف بوجود اللهّ وقوانينه».

وينهي ليف تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده. ولكن مما يؤسف له أنّ الشيخ محمد عبده توفي في تموز عام ١٩٠٥م ولذلك لم تستمر هذه المراسلة بينه وبين تولستوي.

وتولستوي يرى في رسالة الإمام أنّ هناك ديانات كثيرةً ومختلفةً ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان بالله الواحد وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنّ جوهر الديانات الثلاث أيّ اليهودية والمسيحية والإسلامية واحد.

ويرى الكاتب الروسي ضرورة ابتعاد الديانات عن الطقوس الشكليّة لكـي يـستطيع أتباعها التقرب من بعض وعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، آنـذاك تـصل إلى توحيـد قلوب المؤمنين.

وينهي ليف تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده. ولكن مما يؤسف له أنّ الشيخ محمد عبده توفي في تموز عام ١٩٠٥م ولذلك لم تستمر هذه المراسلة بينه وبين تولستوي.

وتولستوي يرى في رسالة الإمام أنّ هناك ديانات كثيرةً ومختلفةً ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان بالله الواحد وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنّ جوهر الديانات الثلاث؛ أيّ اليهودية والمسيحية والإسلامية واحد.

ويرى الكاتب الروسي ضرورة ابتعاد الديانات عن الطقوس الشكلية لكي يستطيع أتباعها التقرّب من بعض، وعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، آنذاك تصل إلى توحيد قلوب المؤمنين.

٢ـ رسالة المنفلوطي إلى تولستوي

أرسل الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦- ١٩٢٤م) رسالةً مفتوحةً إلى تولستوي في عام (١٩١٠م) بعد أن عرف من وسائل الإعلام أنّ تولستوي ترك منزله؛ ليعتزل الناس. فابتدأ رسالته هذه بقوله: «قف ساعةً واحدةً نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دارعزلتك، فقد عشنا في كنفك على مابيننا وبينك من بعد الدار، وشط المزار، عهدًا طويلًا كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك وأبناءك، وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعةٍ نذرفها بين يديك في موقف الوداع».

- **ثم يتحدث المنفلوطي في رسالته عن صراع تولستوي ضد القيصر:**

«قلت لقيصر: «أيها الملك، إنّك صنيعة الشعب وأجيره، لا إلهه ومعبوده، وإنّك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الإكار في المزرعة وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجور على عملٍ يعمله، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل، فكما أنّ صاحب المصنع يسأل العامل هل وفّى عمله ليوفي له أجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكّل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديلٍ ولا تأويلٍ؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟! وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك وأنت نائم في سريرك، بين روضك، ونسيمك وظلك ومائك- هذه الأرض التي تضمّ بين أقطارها مليون فدانٍ، ولا يملك أحدٌ من هؤلاء الملايين- الذين يفلّحونها ويحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلّبون بين حرّها وبردها وأجيجها وثلجها -شبرًا واحدًا فيها، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك....».

ويتحدث المنفلوطي بعد ذلك عن الحياة البسيطة التي كان تولستوي يعيشها فلقد كان يعمل في الحقل مع الفلاحين ويرتدي الملابس التي يرتدونها، ولكن الإقطاعيون لم يستمعوا إلى نصائحه ولم يتخذوا منه قدوة.

رسائل عامة القراء إلي تولستوي

ولم يقتصر الأمر على المشاهير من الكتاب والأدباء، وإنما امتدت رسائل عامة القراء إلى تولستوي وهذا نموذج بسيط منها:

أرسل جبرائيل ساس رسالة إلى تولستوي محتواها أنّه يتمنّى أن تصل رسالته إلى تولستوي، وهو بتمام الصحة والعافية ويطلب من الله الحفاظ على حياة تولستوي لحاجة

الفقراء إليه. فلقد أصبح الشعب الروسي عظيمًا، برأي جبرائيل، لاعتناقه المسيحية ولتخلصه من الوثنية، ويستطيع الشعب الروسي الآن التقدم بفضل تعاليم تولستوي، والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة محفوظة في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، في قسم المخطوطات وتحمل الرقم ٦/ ٢٣٧.

وأرسلت أيضًا معلمة من القاهرة رسالة إلى تولستوي؛ تتمنى له الصحة وطول العمر.

وأرسل له أيضًا طالب مصري يطلب من كاتب الأرض الروسية العظيم نسخةً من رواية «آنا كارينينا»، مع الإهداء على الصفحة الأولى بخط تولستوي نفسه.

واستلم تولستوي رسالةً من فتاةٍ عربيةٍ سوريةٍ مؤرخةٍ بتاريخ ١٠ تشرين الأول عام ١٩٠٤، تطلب صاحبة الرسالة واسمها رمزية عويفني في رسالتها من تولستوي إرسال صورته لتعليقها في بيوت السوريين، الذين يحبونه ولنشرها في الجرائد والمجلات السورية.

وأجاب ليف تولستوي على رسالة الفتاة العربية السورية بتاريخ ١١ شباط عام ١٩٠٥، وسمع كثير من مواطني سوريا برسالة تولستوي ونشرت المجلات والصحف، الصادرة في دمشق في ذلك الوقت صورة تولستوي وبعد ذلك كتبت رمزية عويفني رسالتين إلى الكاتب الروسي وشكرته على طيبه وعلى تلبية طلبها.

وكتب أيضًا إلى ليف تولستوي أحد الناشرين العرب في ١٦ تموز عام ١٩٠٨ يطلب في رسالته الموافقة على ترجمة رواية «آنا كارينينا» ونشرها في القاهرة باللغة العربية، ورأى هذا الناشر أنّ رواية «آنا كارينينا» ستلاقي نجاحًا كبيرًا في المجتمع العربي؛ حيث لم تتمكّن أغلبية القراء العرب من التعرّف جيدًا على فن تولستوي الروائي. أجاب الكاتب الروسي على هذه الرسالة، بأنّه يسمح لجميع المترجمين والناشرين ترجمة ونشر مؤلّفاته دون مقابلٍ مادي، ويستطيع المترجمون في أيّ وقتٍ وفي أيّ مكانٍ نشر مؤلفاته دون موافقته.

آثار تولستوي وإبداعاته

ترك تولستوي مجموعة من الكتب والأعمال الإبداعية القيمة، وقد تناول في كتاباته الأدبية مواضيع أخلاقية ودينية واجتماعية، إن دلَّت على شيءٍ فإنما تدل على فكره العميق، وكان أول إنتاجاته الأدبية هو ثلاثيته التي هي عبارة عن سيرة ذاتيه له على مراحل مختلفة من حياته وهي بعنوان (الطفولة – الصبى – الشباب) وكان ذلك سنة ١٨٥٢م وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

ثم توالت بعد ذلك أعماله وكتاباته الهامة التي سنعرض لها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة لأهميتها؛ فكتب في عام ١٨٥٣م روايته «القوزاق» والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م. وفي العام نفسه كتب أيضًا قصته «ملاحظات مهدف بليارد»، وبعدها بعامين كتب قصصه «سواستبول في كانون الأول» و «سواستبول في إيار» و «سواستبول في آب ١٨٥٥م».

وفي عام ١٨٥٦م كتب قصة «العاصفة الثلجية» وكتب بعدها قصة «ضابط في سلاح الفرسان»، وبعدها بعام واحد كتب أيضًا قصته «لوسيرن» وقصة «ألبيرت» التي انتهى من كتابتها في عام ١٨٥٨م. وبعد ذلك توالت أعماله مثل قصة (ثلاث ميتات)، وقصة (سعادة عائلية)، وشرع في كتابة روايته «الديمسبرويون» (غير تامة).

وكتب قصة (بوليكوشكا) والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م. وكتب أيضًا قصة (ما الذي يحيا به الناس)، وقصة (موت إيفان إيليتش)، وقصة (الشيطان) التي نُشِرت بعد وفاته.

وفي عام ١٨٩٠م شرع في كتابة كتابه «الأب سيرجيوس»، وبعد ذلك كتب قصة كتب قصة السيد والرجل، وقصة «الحاج مراد»، وقصة «الجثة الحية» و «لا تقتل» «بعد حفلة رقص» «الكوبون المزور» «ذكريات».

وكتب كذلك عددًا من الكتب الهامة مثل «ما الذي أؤمن به؟»، وكتاب «ما هو الفن؟»، و «ثمار التنوير»، و«حِكَم النبي»، وكتاب «شكسبير والدراما» وجرب قلمه في المسرح أيضًا فكتب مسرحية «قوة الظلام» التي منع أداؤها من قبل الرقابة.

ولكن أبرز أعماله، وأكثرها شهرة في جميع دول العالم هي رائعته «الحرب والسلام» التي شرع في تأليفها عام ١٨٦٣م وانتهى منها عام ١٨٩٦م، وقد تناول فيها مراحل الحياة المختلفة، كما يصف الحوادث السياسية والعسكرية التي حدثت في أوربا في الفترة ما بين ١٨٠٥ و١٨٢٠م. وتناول غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢م. كما سيجيء تفصيله لاحقًا.

ومن أشهر أعماله أيضًا التي حازت شهرةً واسعة وقبولًا لدى النقاد والقراء روايته «آنا كارنينا» التي عالج فيها قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية في شكل مأساة غرامية كانت بطلتها هي «آنا كارنينا». ومن رواياته أيضًا ذات الشهرة الواسعة رواية «البعث» التي كتبها سنة ١٨٩٩م.

وكانت له آراؤه النقدية والفلسفية الهامة، وكتب أيضًا العديد من المقالات من أجل ترسيخ بعض القيم الحسنة مثل المساواة بين البشر وتحرير الأقنان. وقد ترجمت جميع أعماله إلى مختلف لغات العالم.

وتشهد الترجمات المتعددة لمؤلفات تولستوي على الاهتمام الكبير بتراث تولستوي في المنطقة العربية. فلقد ترجم سليم قبعين إلى اللغة العربية ومن اللغة الروسية مباشرةً رواية «لحن كريتسر» وذلك في عام (١٩٠٤). كما ترجم في عام (١٩٠٩)، «تهديم الجحيم وإعادة بنائه»، وكما ذكرنا فإن رشيد حداد ترجم في عام (١٩٠٧) رواية «البعث» (١٨٩٩). كما ترجم أنطوان بلان في عام (١٩١٣) القصص الشعبية لتولستوي، أما عصام ناصيف فلقد ترجم «والنور في الظلمة يضيء».

وفي حقيقة الأمر نجد أن مؤلفات الكاتب الروسي العظيم تولستوي التي تم ترجمتها إلى اللغة العربية مباشرة من اللغة الروسية هي قليلة جدًّا بالنسبة لما كتبه تولستوي، وهذا، رغم أن العلاقات الثقافية والعلمية والأدبية بين البلدان العربية والاتحاد السوفييتي كانت في الفترة الأخيرة تنمو وتتوسع وتتعمق بسرعة ملحوظة، ومع هذا فإنّنا لا نجد عملًا نقديًا باللغة العربية حول أعمال تولستوي المترجمة إلى اللغة العربية وذلك لفقر المكتبة العربية بالمؤلفات المتخصصة في المكتبات وفي الأرشيف، فلقد ذكرت المستشرقة المعروفة، أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينغراد الدكتورة آنا أركاديفنا دالينينا في مقالتها «الأدب الروسي في البلدان العربية» بأن مترجمي أعمال ليف تولستوي والأدباء الروس الآخرين في مطلع القرن العشرين حاولوا تزيين الترجمة وتقريبها، قدر الإمكان، إلى الأسلوب التقليدي، فلقد حاول المترجمون العرب تعزيز مواقفهم الفكرية مستندين بذلك على موقف تولستوي الفكري.

ترجمت في مطلع القرن العشرين مؤلفات تولستوي الفكرية والفلسفية والدينية. ولا نجد بين الترجمات العربية آنذاك رواية «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩)، أو رواية «آنا كارينينا» (١٨٧٣-١٨٧٧). أو في أعمال تولستوي الإبداعية التي ألفها في الخمسينيات من القرن الماضي.

ويسمي المترجمون العرب ليف تولستوي معلمًا وفيلسوفًا عظيمًا، مع تطور الأدب العربي، يتطور تدريجيًا الاهتمام بتراث تولستوي، ففي الوقت الحاضر يهتم المترجمون والكتّاب والقرّاء والنقاد العرب بتراث تولستوي الإبداعي أكثر من اهتمامهم بمقالاته الفكرية.

رحيل تولستوي ورثاؤه

تولُستويُ تُجري آيَةُ العِلمِ دَمعَها
عَلَيكَ وَيَبكي بائِسٌ وَفَقيرُ

وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكنِ زالَ نَصيرُهُ
وَما كُلُّ يَومٍ لِلضَعيفِ نَصيرُ

أمير الشعراء أحمد شوقي

اللحظات الحاسمة

يلاحظ القارئ أنني بدأت الكتاب بلحظة حاسمة ومثيرة من حياة تولستوي وهي اللحظة التي بلغ فيها الزهد مبلغه عند تولستوي؛ حيث قرر تولستوي أن يتجرد من كل ما يملك ويسيح في أرض الله ويتأمل في الطبيعة باحثًا عن سر الحياة فيها. وبالفعل قام تولستوي بتنفيذ خطته في الزهد حيث جمع أمتعته وأشياءه في جوف الليل، وارتدى الخيش وأخشن الثياب وترك ضيعته ياسناي بوليانا؛ ولم يكن يضع خطة لما يستقبله من أيام في حياته الجديدة.

وفي الحقيقة لم تكن هاته أول مرة فكر فيها تولستوي في السياحة في أرض إله؛ ففي يوم ١٧ حزيران عام ١٨٨٤م حاول تولستوي أن يهجر ضيعته المحببة إلى قلبه ياسنايا بوليانا، لكن مشاعر الحب والشفقة على زوجته الحامل، وعلى أطفاله رفعت هذه الخطة من ذهنه ووضعتها على الرف، وعاد تولستوي وتابع الحياة في ضيعته كما كان.

وبعد ذلك كانت هناك عدة محاولات للفرار لكن تولستوي لم يمتلك القدر الكافي من الجرأة النفسية على تنفيذها ، وتأزم الوضع في ياسنايا بوليانا بخصوص وصيته التي كتبها بإلحاح من أصدقائه وأتباعه سرًّا عن العائلة في صيف ١٩١٩م.

وربما كان عدم التوافق في الطباع بين تولستوي وزوجته صوفيا؛ هو الذي شجعه على هذه الفكرة حيث إنه لم يكن هناك توافقًا بينهما بالمرة في الطباع؛ فقد كتبت زوجة تولستوي صوفيا أندريفنا في شهر شباط عام ١٨٨٢م رسالة حزينة إلى زوجها قالت فيها «لقد سارت حياتنا نحو الانفراد» وفي شهر شباط من العام نفسه كتبت في مذكراتها اعتراف زوجها إن أقوى فكرة لديه الآن هي أن يهجر الأسرة. وعدم التوافق في الطباع بينهما لا يمنع ولا يتعارض مع ما قررناه سابقًا من أنها ساعدت تولستوي في إبداعاته الأدبية؛ فهو نفسه اعترف بذلك الفضل عليه.

وجذور هذا الخلاف تعود إلى السنوات الأولى فمنذ الشهور الأولى لزواجهما اكتشف كل منهما أنه ينظر للأشياء بنظرة مختلفة وأن لكل منهما ذوقه الخاص وعاداته التي لا يرغب في التخلي عنها.

صدام تولستوي مع زوجته

وكتبت صوفيا أيضًا لزوجها في ٩ كانون أول عام ١٨٦٢م: «**نعم نحن نسير على دربين مختلفين منذ الطفولة؛ فأنت تحب القرية وأطفال الفلاحين، كما تحب كل هاته الحياة البدائية التي خرجت منها عندما تزوجتني. أما أنا فابنة مدينة كيفما حاولت التفكير وسعيت لأعشق القرية والشعب؛ فأنا لا أستطيع أن أحبهم من كل كياني ولن أفعل ذلك أبدًا أنا لا أفهم ولن أفهم هذه الطبيعة حتى آخر أيامي. إن وصفك لأطفال الفلاحين ولحياة الشعب ، وأحاديثك وحكاياتك لم تغير في شيء فأنت مثلما كنت في مدرسة ياسنايا بولياتا؛ لكن للأسف! إنك لم تحب أطفالك كثيرًا مثلما تحب أطفال الفلاحين**».

كان ذلك أول صدام حقيقي جدي بين تولستوي وزوجته صوفيا لا يمكن أن يزول بدون أثر. وشرحت سبب ذلك صوفيا فيما بعد في كتابها حياتي: «**كنت أغار دائمًا على تولستوي من الشعب من حبه لأطفال الفلاحين أكثر من حبه لأولاد السادة**».

وفي تلك الرسالة عبّرت بحدة وبشكل واضح وكأن الأمر يمكن أن يثير عواطفه وحبه.
ولم تكن علاقة تولستوي وزوجته مستوية في أعوام الستينيات والسبعينيات لكن الاهتمام بالمنزل والأطفال سوّى من خشونة العلاقة بينهما. وحقيقة الأمر أن تولستوي وجد في صوفيا زوجته مساعدة رائعة لأعماله الأدبية وهناك كلمات إعجاب كثيرة عن مواهب صوفيا المتعددة في رسائل ومذكرات ريبن، وستراخوفا، ومقالات غوركي، والكثيرين من معارفها المعاصرين.

وفي عام ١٨٨٣م أعطى تولستوي تفويضًا تامًا لزوجته للقيام بالأعمال الاقتصادية وذلك لنقل صورة حياته بشكل يوازي نظراته الجديدة. وفي الوقت نفسه منح تولستوي العائلة الحق في نشر مؤلفاته الصادرة حتى عام ١٨٨١م.

وفيما بعد صيف ١٨٩٢ قسم تولستوي كل أملاكه المنقولة، وغير المنقولة بين أولاده وزوجته، لكن كافة هاته الإجراءات لم تخلص تولستوي من عدم رضائه على نمط حياته.

وكان تولستوي يتصور أنه بإمكان أي فلاح أن يقف في وجهه ويقول له في وجهه: (أيها العجوز اللعين تقول شيئًا وتفعل شيئًا آخر وتعيش بشكلٍ آخر مختلف. لقد حان وقت موتك وتحاول النفاق!) ثم أضاف تولستوي إلى هاته الكلمات التي تعبر عما يمكن أن يقال عنه قوله: (وهذا حقٌّ تمامًا فأنا كثير ما أستلم مثل هذه الرسائل من أصدقائي ومن يكتب لي غيرهم؟. هم على حق لا شك في ذلك. فأنا كل يوم أخرج إلى الشارع حيث يقف خمسة من الشحاذين الرثي الثياب أما أنا فأصعد على الفرس لأعلى وأنطلق وخلفي الحوذي!...)

وكان أنصار الكاتب وأتباعه يطالبونه وبإلحاح ببطولة التخلي عن العائلة والفرار من ياسناي بوليانا. فقد أرسل عليه أحد تلامذته وهو بوريس ماندجوس من مدينة كييف رسالة

في شهر شباط عام ١٩١٠م تضمنت ما اقترحه على تولستوي من توزيع أملاكه بين الفلاحين والتخلي عن لقب الكونت يقول: (الطيب والغالي ليف نيكولا يفيتيش هبوا الحياة للإنسان وللبشرية قوموا بتنفيذ الشيء الأخير الذي عليكم أن تقوموا به في الحياة... تخلوا عن لقب الكونت ووزّعوا أملاككم على الأقرباء والفقراء وابقوا بدون كوبيك وتنقّلوا مثل الشحاذين من مدينة إلى أخرى، تخلّوا عن أنفسكم إذا لم تستطيعوا التخلي عن الأقرباء في دائرة الأسرة القريبة).

- لكن ما موقف تولستوي من مثل هاته الرسائل التي انسالت عليه؟

قال تولستوي ردًّا على مثل هذه الرسائل: (أعرف جيدًا كل هذا، بل أعرفه وأتهيّأ له من كل روحي، ولكن لا أستطيع أن أفلت، هل تعرفون لماذا؟ لأنني أخاف أن أمرّ عبر الدماء وفوق الجثث، هذا مرعب، لذلك من الأفضل أن أعيش حتى آخر هذه الحياة الكريهة.)

تولستوي يهجر أهله

بلغ الصراع ذروته ويمكن نقول إن تولستوي مُزِّق إلى أجزاء؛ فالمعسكران المتصارعان فيما بينهما؛ ساعدا على خلق ظروف حياتية لم يقوى تولستوي على تقبُّلها وتحمّلها في أمورٍ لا تطاق بالنسبة له. وكان تولستوي يحتاج إلى دفعة واحدة؛ كي ينفّذ فكرته القديمة التي سبق وتراجع عنها وهي ترك ضيعته والسياحة في القرى والتنقّل بين أكواخ الفلاحين والشحّاذين.

وبالفعل تلقّى تولستوي هاته الدفعة عندما شاهد زوجته صوفيا تعبث بين أوراقه في مكتبه باحثةً عن الوصية التي كتبها زوجها.

وبالفعل انطلق تولستوي في تنفيذ خطته وبدأ يُلملم بعض أشيائه وكتبه بما تبقى في جسده وروحه من قوة، وهاجر من ضيعته ياسنايا بوليانا؛ ليعيش بين عامة الشعب فهذه أمنيته التي طالما تمنّاها من زمن بعيد؛ تمنى أن يتخلى عن حياة الثراء والرفاهية ويقطن بين الفلاحين في بيت بسيط ويبدأ حياة جديدة..

وداعًا تولستوي

لقد انقطع فجأة طريق تولستوي إلى الضفة الأخرى وبشكل مأساوي لقد التهبت رئتاه في المقطورة واضطر لمغادرة القطار في تلك المحطة المعزولة والغير معروفة لدى الجميع (استبافور) على الخط الحديدي، موسكو كورسك. تلك المحطة التي سرعان ما ذاع اسمها بمجرد حلول تولستوي فيها؛ حتى إنه لم يغادر اسمها صفحات الجرائد طوال الأيام السبعة التي حاول فيها الأطباء جاهدين من أجل الإبقاء على حياة الأديب العالمي تولستوي.

لكن الله شاء أن تكون نهاية الأديب الذي حلَّق أدبه وفكره في مختلف بقاع العالم - في هذه البقعة من أرض روسيا؛ فلم يعد قلب تولستوي يتحمل المرض؛ فتوقف قلب تولستوي عن النبض في الساعة السادسة وخمس دقائق من صباح السابع من تشرين الأول عام ١٩١٠م.

وإكرامًا لحلول تولستوي بهذه المحطة البسيطة فقد سميت باسمه وأصبحت تُدعى (محطة ليف تولستوي).

خبر وفاة تولستوي صدمة للعالم

وتلقى الناس في العالم أجمع خبر وفاة الأديب العالمي ليف تولستوي بحزن شديد؛ فقد مات جسد الرجل الذي أحبوه كثيرًا وعشقوا كتاباته وأفكاره التي حررتهم من ذلِّ القيد والعبودية؛ لكن الذي خفف عنهم أنه إذا كان مات جسده فإن إبداعاته وكتاباته باقية بينهم يتسلون بها عن مصيبتهم في فقد تولستوي.

وحضر القساوسة بعد ذلك إلى محطة القطار التي مات بها تولستوي وظلوا يتتابعون مع الناس من وقت لآخر وخاصةً في أيام مرض تولستوي وقبل رحيله بساعات بسيطة. وكان هدف القساوسة من هاته الزيارات المتكررة لتولستوي؛ هي أن يبرهنوا للناس جميعًا

ولمواطني روسيا أن تولستوي قد أعلن توبته قبل وفاته وندم على ما قاله في حق الكنيسة وقساوستها. ولم يكن هذا صحيحًا بالمرة فقد ظل تولستوي متمسكًا برأيه لآخر لحظة في حياته.

ولكن ما حدث هو أن المطران «تولا بارفيني» جاء سرًّا إلى تولستوي، وأخبر الشرطة بأنه وصل بناء على طلب من الحاكم الإمبراطوري وبمهمة من المجمع الكنائسي. وسأل بارفيني أفراد أسرة تولستوي عما إذا كان قد عبَّر قبل وفاته عن مصالحة الكنيسة.

وقدم بعد ذلك مدير إدارة الشرطة (ن. ب. خارلاموف) تقريرًا لوزارة الداخلية أن مهمة المطران بارفيني لم تلق النجاح حيث إنه لم يؤكد له أحدٌ من أفراد أسرة تولستوي أنه قد عبر قبل وفاته بالمصالحة مع الكنيسة.

تم بعد ذلك دفن تولستوي حسب وصيته في غابة «زمازاز» في ضيعته ياسنايا بوليانا على طرف الوادي الكبير في هذا المكان الذي قال عنه شقيقه الحبيب نيكولاي: «هنا تحفظ العصا الخضراء».

وشبّه غوركي موت تولستوي بكارثة طبيعية وبإعصار جائح.. حقًّا لقد كان موت تولستوي مصيبة شعبية وخسارة من أكبر الخسارات للبشرية جمعاء. وأنهى غوركي نعيه لتولستوي بقوله: «**نعم مات تولستوي الإنسان لكن الكاتب العظيم حي إلى الأبد معنا ..**»



تولستوي مع حصانه المحبوب عام ١٩٠٨ م وقبل وفاته بعامين

رثاء تولستوي

حين انتشر خبر وفاة الأديب العالمي تولستوي في شتى بلدان العالم، غلّفت الحسرة الوجوه، وحزن الناس أشد الحزن على رحيل فيلسوف البسطاء، أو بالأحرى فيلسوف الغلابة الذي سخر قلمه من أجل خدمة الطبقات الكادحة من الشعب ومن أجل الدفاع عن حقوقهم، وآمالهم في الحياة، واكتفى البسطاء والعامة من الناس أن شيعوا تولستوي بدموعهم الغزيرة.

لكن شعراء كل أمة وكل شعب هم لسان حال الأمة؛ يخلدون أهم اللحظات ليس في تاريخ الأمة فقط، بل في تاريخ البشرية كلّها؛ لذلك لم يلبث أن لهج شعراء العالم وكُتابه بمختلف أهوائهم ومذاهبهم أن رثوا تولستوي بأحرّ الكلمات والقصائد التي سجلها التاريخ، وأرى لزامًا علينا أن نعرض صورة من هذه الصور وهي لشعراء وكتاب العرب الذين رثوا تولستوي بأحر الكلمات التي شرحت لنا من هو تولستوي. لذا آثرت أن أعرض لقصيدتين كاملتين لشاعرين مصريين يعدان من أبرز شعراء القرن العشرين ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي أجمع، وهما أمير الشعراء أحمد بك شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢)، وشاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢).

أولا: رثاء أمير الشعراء لتولستوي

وقد بنى الشاعر أحمد شوقي رثاءه لتولستوي على شكل حوار بين تولستوي وبين الشاعر العربي أبي العلاء المعري. وقد وصف أمير الشعراء أحمد شوقي الكاتب الروسي بالحكمة والشجاعة؛ فعليه يحزن الفقراء والمساكين، لأنّه نصير الضعفاء، ومن الصعب على الإنسان الفقير أن يجد لنفسه نصيرًا. يبكيه الفقراء؛ لأنّه منارتهم ويبكيه المؤمنون، لأنّه أخذ

من الدين جوهره، وإذا كان لابدّ من طقس الاعتراف فيجب أن نذهب ونعترف بخطايانا إلى تولستوي وليس إلى الكاهن، لأنّه دافع عن الفقراء، ضد ظلم الأغنياء، ولأنّه ناضل ضد الحروب بكل أشكالها، ونادى بالمحبة. ويرى شوقي أنّ تولستوي يشبه السيّد المسيح فيقول:

تطوف كعيس بالحنان وبالرضى   عليهم، وتغشى دورهم وتزور

ويرى شوقي أنّ تولستوي يخدم لب الدين، ويخدم الناقمون عليه قشور الدين، ولعل كل كتاب من كتبه يشبه الإنجيل في قدسيته، وسمع شوقي عن هرب تولستوي من بيته.

وهاهي القصيدة كاملةً كما وردت في الشوقيات يقول شوقي:

تولُستويُ تُجري آيَةُ العِلمِ دَمعَها   عَلَيكَ وَيَبكي بائِسٌ وَفَقيرُ
وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكنِ زالَ نَصيرُهُ   وَما كُلُّ يَومٍ لِلضَعيفِ نَصيرُ
وَيَندُبُ فَلّاحونَ أَنتَ مَنارُهُم   وَأَنتَ سِراجٌ غَيَّبوهُ مُنيرُ
يُعانونَ في الأَكواخِ ظُلماً وَظُلمَةً   وَلا يَملُكونَ البَثَّ وَهوَ يَسيرُ
تَطوفُ كَعيسى بِالحَنانِ وَبِالرِضى   عَلَيهِم وَتَغشى دورَهُم وَتَزورُ
وَيَأسى عَلَيكَ الدينُ إِذ لَكَ لُبُّهُ   وَلِلخادِمينَ الناقِمينَ قُشورُ
أَيَكفُرُ بِالإِنجيلِ مَن تِلكَ كُتبُهُ   أَناجيلُ مِنها مُنذِرٌ وَبَشيرُ
وَيَبكيكَ إِلفٌ فَوقَ لَيلى نَدامَةً   غَداةَ مَشى بِالعامِرِيِّ سَريرُ
تَناوَلَ ناعيكَ البِلادَ كَأَنَّهُ   يَراعٌ لَهُ في راحَتَيكَ صَريرُ
وَقيلَ تَوَلّى الشَيخُ في الأَرضِ هائِماً   وَقيلَ بِدَيرِ الراهِباتِ أَسيرُ
وَقيلَ قَضى لَم يُغنِ عَنهُ طَبيبُهُ   وَلِلطِبِّ مَن بَطشِ القَضاءِ عَذيرُ
إِذ أَنتَ جاوَرتَ المَعَرِّيَّ في الثَرى   وَجاوَرَ رَضوى في التُرابِ ثَبيرُ

وَأَقبَلَ جَمعُ الخالِدينَ عَلَيكُما ... وَغالى بِمِقدارِ النَظيرِ نَظيرُ
جَماجِمُ تَحتَ الأَرضِ عَطَّرَها شَذىً ... جَناهُنَّ مِسكٌ فَوقَها وَعَبيرُ
بِهِنَّ يُباهي بَطنُ حَوّاءَ وَاحتَوى ... عَلَيهِنَّ بَطنُ الأَرضِ وَهوَ فَخورُ
فَقُل يا حَكيمَ الدَهرِ حَدِّث عَنِ البِلى ... فَأَنتَ عَليمٌ بِالأُمورِ خَبيرُ
أَحَطتَ مِنَ المَوتى قَديماً وَحادِثاً ... بِما لَم يُحَصِّل مُنكَرٌ وَنَكيرُ
طَوانا الَّذي يَطوي السَمَواتِ في غَدٍ ... وَيَنشُرُ بَعدَ الطَيِّ وَهوَ قَديرُ
تَقادَمَ عَهدانا عَلى المَوتِ وَاستَوى ... طَويلُ زَمانٍ في البِلى وَقَصيرُ
كَأَن لَم تَضِق بِالأَمسِ عِنّي كَنيسَةٌ ... وَلَم يُؤوِني دَيرٌ هُناكَ طَهورُ
أَرى راحَةً بَينَ الجَنادِلِ وَالحَصى ... وَكُلُّ فِراشٍ قَد أَراحَ وَثيرُ
نَظَرنا بِنورِ المَوتِ كُلَّ حَقيقَةٍ ... وَكُنّا كِلانا في الحَياةِ ضَريرُ
إِلَيكَ اِعتِرافي لا لِقَسٍّ وَكاهِنٍ ... وَنَجوايَ بَعدَ اللَهِ وَهوَ غَفورُ
فَزُهدُكَ لَم يُنكِرهُ في الأَرضِ عارِفٌ ... وَلا مُتَعالٍ في السَماءِ كَبيرُ
بَيانٌ يُشَمُّ الوَحيُ مِن نَفَحاتِهِ ... وَعِلمٌ كَعِلمِ الأَنبِياءِ غَزيرُ
سَلَكتُ سَبيلَ المُترَفينَ وَلَذَّ لي ... بَنونَ وَمالٌ وَالحَياةُ غُرورُ
أَداةُ شِتائي الدِفءُ في ظِلِّ شاهِقٍ ... وَعُدَّةُ صَيفي جَنَّةٌ وَغَديرُ
وَمُتِّعتُ بِالدُنيا ثَمانينَ حِجَّةً ... وَنَضَّرَ أَيّامي غِنىً وَحُبورُ
وَذِكرٌ كَضَوءِ الشَمسِ في كُلِّ بَلدَةٍ ... وَلا حَظَّ مِثلُ الشَمسِ حينَ تَسيرُ
فَما راعَني إِلّا عَذارى أَجَرنَني ... وَرُبَّ ضَعيفٍ تَحتَمي فَيُجيرُ
أَرَدتُ جِوارَ اللَهِ وَالعُمرُ مُنقَضٍ ... وَجاوَرتُهُ في العُمرِ وَهوَ نَضيرُ

صِباً وَنَعيمٌ بَينَ أَهلٍ وَمَوطِنٍ وَلَذّاتُ دُنيا كُلُّ ذاكَ نَزورُ
بِهِنَّ وَما يَدرينَ ما الذَنبُ خَشيَةٌ وَمِن عَجَبٍ تَخشى الخَطيئَةَ حورُ
أَوانِسُ في داجٍ مِنَ اللَيلِ موحِشٍ وَلِلَّهِ أُنسٌ في القُلوبِ وَنورُ
وَأَشبَهُ طُهرٍ في النِساءِ بِمَريَمٍ فَتاةٌ عَلى نَهجِ المَسيحِ تَسيرُ
تُسائِلُني هَل غَيَّرَ الناسُ ما بِهِم وَهَل حَدَثَت غَيرَ الأُمورِ أُمورُ
وَهَل آثَرَ الإِحسانَ وَالرِفقَ عالَمٌ دَواعي الأَذى وَالشَرِّ فيهِ كَثيرُ
وَهَل سَلَكوا سُبلَ المَحَبَّةِ بَينَهُم كَما يَتَصافى أُسرَةٌ وَعَشيرُ
وَهَل آنَ مِن أَهلِ الكِتابِ تَسامُحٌ خَليقٌ بِآدابِ الكِتابِ جَديرُ
وَهَل عالَجَ الأَحياءُ بُؤساً وَشِقوَةً وَقَلَّ فَسادٌ بَينَهُم وَشُرورُ
قُمِ اِنظُر وَأَنتَ المالِئُ الأَرضَ حِكمَةً أَأَجدى نَظيمٌ أَم أَفادَ نَثيرُ
أُناسٌ كَما تَدري وَدُنيا بِحالِها وَدَهرٌ رَخِيٌّ تارَةً وَعَسيرُ
وَأَحوالُ خَلقٍ غابِرٍ مُتَجَدِّدٍ تَشابَهَ فيها أَوَّلٌ وَأَخيرُ
تَمُرُّ تِباعاً في الحَياةِ كَأَنَّها مَلاعِبُ لا تُرخى لَهُنَّ سُتورُ
وَحِرصٌ عَلى الدُنيا وَمَيلٌ مَعَ الهَوى وَغِشٌّ وَإِفكٌ في الحَياةِ وَزورُ
وَقامَ مَقامَ الفَردِ في كُلِّ أُمَّةٍ عَلى الحُكمِ جَمٌّ يَستَبِدُّ غَفيرُ
وَحُوِّرَ قَولُ الناسِ مَولىً وَعَبدُهُ إِلى قَولِهِم مُستَأجِرٌ وَأَجيرُ
وَأَضحى نُفوذُ المالِ لا أَمرَ في الوَرى وَلا نَهيَ إِلّا ما يَرى وَيُشيرُ
تُساسُ حُكوماتٌ بِهِ وَمَمالِكٌ وَيُذعِنُ أَقيالٌ لَهُ وَصُدورُ
وَعَصرٌ بَنوهُ في السِلاحِ وَحِرصُهُ عَلى السِلمِ يَجري ذِكرَهُ وَيُديرُ

وَمِن عَجَبٍ فـي ظِلِّها وَهـــوَ وارِفٌ   يُصـــادِفُ شَعبـاً آمِنـاً فَيُغـيـرُ
وَيَأخُذُ مِـن قـــوتِ الفَقيــرِ وَكَسبِـهِ   وَيُؤوي جُيوشاً كَالحَصى وَيَميـرُ
وَلَمّا اِستَقَـلَّ البَـرَّ وَالبَحـرَ مَذهَبــاً   تَعَلَّـقَ أَسبـابَ السَمـاءِ يَطيـرُ

ومن الجدير بالذكر أنّ هاته القصيدة السابقة تُرجمت إلى اللغة الروسية، ونقلها إلى الروسية الشاعر جورافيلوف، ونشرت في «مختارات من الشعر العربي في مصر». صدرت في موسكو في عام ١٩٥٦.

كتب المستشرق السوفييتي المعاصر شيفمن، الذي كان يعمل في معهد تولستوي الأدبي في موسكو، حول رثاء أحمد شوقي لتولستوي: «**عندما نقرأ رثاء الشاعرالعربي نتحسس، مشاعر الاحترام العميق التي يحملها أحمد شوقي لتراث تولستوي الذي يتميز بنزعته الإنسانية.**

كما كتبت حول القصيدة المذكورة الباحثة السوفييتية شوستر: «إن رثاء أحمد شوقي لتولستوي ذو أهميةٍ كبيرةٍ بالنسبة لنا، لأنّه يكتب حول الكاتب الروسي العظيم، الذي كرس حياته من أجل سعادة الإنسانية».

ثانيا: رثاء الشاعر حافظ إبراهيم لتولستوي

وقد نشر الشاعر حافظ إبراهيم رثاءه لتولستوي مباشرةً بعد سماعه بوفاة الكاتب الروسي وبعد أن سمع برثاء أحمد شوقي له. فلقد توفي تولستوي في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١٠ وفي الشهر نفسه (نوفمبر سنة ١٩١٠م) نشر حافظ إبراهيم رثاءه لتولستوي. يقول:

رَثاكَ أَميرُ الشِعـرِ في الشَرقِ وَانـبَرى   لِمَدحِـكَ مِـن كُتّابِ مِصـرَ كَبيـرُ
وَلَستُ أُبـالـي حيـنَ أَرثيكَ بَعـدَهُ   إِذا قيـلَ عَنّي قَـد رَثـاهُ صَغيـرُ

قَد كُنتَ عَـونـاً لِلضَعيـفِ وَإِنَّنـي ضَعيـفٌ وَمـا لي في الحَيـاةِ نَصيــرُ
وَلَسـتُ أُبالي حيـنَ أَبكيـكَ لِلــوَرى حَوَتـكَ جِنانٌ أَم حَـواكَ سَعيــرُ
فَإِنّــي أُحِـــبُّ النابِغيـنَ لِعِلمِهِـــم وَأَعشَقُ رَوضَ الفِكرِ وَهـوَ نَضيــرُ
دَعَوتَ إِلى عيسى فَضَجَّــت كَنائِــسٌ وَهُــزَّ لَهـا عَــرشٌ وَمـادَ سَريــرُ
وَقـالَ أُنــاسٌ إِنَّــهُ قَـولُ مُلحِـــدٍ وَقــالَ أُنــاسٌ إِنَّــهُ لَبَشيـــرُ
وَلَـولا حُطامٌ رَدَّ عَنــكَ كِيادَهُـــم لَضِقتَ بِـهِ ذَرعــاً وَســاءَ مَصيــرُ
وَلَكِن حَماكَ العِلمُ وَالـرَأيُ وَالحِجـــا وَمـالٌ إِذا جَــدَّ النِـزالُ وَفيــرُ
إِذا زُرتَ رَهــنَ المَحبَسَيـنِ بِحُفــرَةٍ بِهــا الزُهــدُ ثــاوٍ وَالذَكـاءُ سَتيـرُ
وَأَبصَرتَ أُنسَ الزُهدِ في وَحشَــةِ البِلى وَشاهَـدتَ وَجهَ الشَيـخِ وَهـوَ مُنيـرُ
وَأَيقَنـتَ أَنَّ الديـنَ لِلَّـهِ وَحـــدَهُ وَأَنَّ قُبــورَ الزاهِــدينَ قُصــورُ
فَقِف ثُـمَّ سَلِّـم وَاِحتَشِـم إِنَّ شَيخَنـا مَهيبٌ عَلـى رَغـمِ الفَنـاءِ وَقـــورُ
وَسائِلـهُ عَمّــا غــابَ عَنـكَ فَإِنَّــهُ عَليـــمٌ بِأَســرارِ الحَيـاةِ بَصيــرُ
يُخَبِّرْكَ الأَعمى وَإِن كُنـتَ مُبصِـــرًا بِما لَـم تُخَبِّر أَحـرُفٌ وَسُطـــورُ
كَأَنّي بِسَمعِ الغَيبِ أَسمَــعُ كُـلَّ مـــا يُجيبُ بِـــهِ أُستاذُنــا وَيُحيـــرُ
يُناديكَ أَهـلًا بِالَّـذي عـاشَ عَيشَنـــا وَمـاتَ وَلَـم يَـدرُج إِلَيـهِ غُـــرورُ
قَضَيتَ حَياةً مِلؤُهـا البِرُّ وَالتُقـــى فَـأَنتَ بِـأَجـرِ المُتَّقيـنَ جَـديــرُ
وَسَمَّوكَ فيهِـم فَيلَسوفــاً وَأَمسَكــوا وَمـــا أَنتَ إِلّا مُحسِـــنٌ وَمُجيـــرُ
وَما أَنتَ إِلّا زاهِـدٌ صـــاحَ صَيحَـــةً يَـــرِنُّ صَداهـــا ساعَـــةً وَيَطيـــرُ
سَلَوتَ عَـنِ الدُنيـا وَلَكِنَّهُـم صَبَـــوا إِلَيـهـا بِـمـا تُعطيهِـــمُ وَتَميـــرُ

حَياةُ الوَرى حَربٌ وَأَنتَ تُريدُها ... سَلامًا وَأَسبابُ الكِفاحِ كَثيرُ
أَبَت سُنَّةُ العُمرانِ إِلّا تَناحُرًا ... وَكَدحًا وَلَو أَنَّ البَقاءَ يَسيرُ
تُحاوِلُ رَفعَ الشَرِّ وَالشَرُّ واقِعٌ ... وَتَطلُبُ مَحضَ الخَيرِ وَهوَ عَسيرُ
وَلَولا اِمتِزاجُ الشَرِّ بِالخَيرِ لَم يَقُم ... دَليلٌ عَلى أَنَّ الإِلَهَ قَديرُ
وَلَم يَبعَثِ اللَهُ النَبِيّينَ لِلهُدى ... وَلَم يَتَطَلَّع لِلسَريرِ أَميرُ
وَلَم يَعشَقِ العَلياءَ حُرٌّ وَلَم يَسُد ... كَريمٌ وَلَم يَرجُ الثَراء فَقيرُ
وَلَو كانَ فينا الخَيرُ مَحضًا لَما دَعا ... إِلى اللَهِ داعٍ أَو تَبَلَّجَ نورُ
وَلا قيلَ هَذا فَيلَسوفٌ مُوَفَّقٌ ... وَلا قيلَ هَذا عالِمٌ وَخَبيرُ
فَكَم في طَريقِ الشَرِّ خَيرٌ وَنِعمَةٌ ... وَكَم في طَريقِ الطَيِّباتِ شُرورُ
أَلَم تَرَ أَنّي قُمتُ قَبلَكَ داعِيًا ... إِلى الزُهدِ لا يَأوي إِلَيَّ ظَهيرُ
أَطاعوا أَبيقورًا وَسُقراط قَبلَهُ ... وَخولِفتُ فيما أَرتَئي وَأُشيرُ
وَمِتُّ وَما ماتَت مَطامِعُ طامِعٍ ... عَلَيها وَلا أَلقى القِيادَ ضَميرُ
إِذا هُدِمَت لِلظُلمِ دورٌ تَشَيَّدَت ... لَهُ فَوقَ أَكتافِ الكَواكِبِ دورُ
أَفاضَ كِلانا في النَصيحَةِ جاهِدًا ... وَماتَ كِلانا وَالقُلوبُ صُخورُ
فَكَم قيلَ عَن كَهفِ المَساكينِ باطِلٌ ... وَكَم قيلَ عَن شَيخِ المَعَرَّةِ زورُ
وَما صَدَّ عَن فِعلِ الأَذى قَولُ مُرسَلٍ ... وَما راعَ مَفتونَ الحَياةِ نَذيرُ

ومن الملاحظ أن رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي لا يختلف كثيرًا من حيث الشكل والمضمون عن رثاء أحمد شوقي له. حتى أن القافية واحدة.

ويصف حافظ إبراهيم تولستوي بما وصفه به شوقي؛ فيقول: إنّ تولستوي كان عونًا للضعيف، ولا يهم الشاعر أكان تولستوي في الجنة أم في النار فحسبه أنّه عالم مفكر وأنّه دعا إلى المعروف ونهى عن المنكر.

كما أنه قارن بين المعري وبين تولستوي؛ فكلاهما كان زاهدًا ناسكًا، ويدير حديثًا بين المعري وتولستوي ويقول الأول للثاني تريد الحياة سلامًا وهي حرب وكفاح. لقد سلوت عن الدنيا وتهالك غيرك عليها. تحاول رفع الشر، وهو واقع.

ويقول المعري: لقد ناديت بما ناديت به، ولكن الناس يلهثون وراء الملذات والطيبات، ومتّ ومطامع الجشعين لم تمت. فقلوب الناس من صخر جبلت، فلا تؤثر فيها نصائح شيخ المعرة ولا أفكار كاتب الأرض الروسية العظيم.

مات الرجل لأحمد لطفي السيد

ولم يقتصر الأمر في رثاء تولستوي على الشعراء فقط، وإنما رثاه الكتاب كذلك والصحفيون؛ فبعد ثلاثة أيام فقط من وفاة تولستوي أيّ في ٢٤ تشرين الثاني كتب الأستاذ أحمد لطفي السيّد مقالًا في صحيفة «الجريدة» بعنوان «مات الرجل».

في جريدة «الجريدة» بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩١٠، العدد ١١٢٧، بعنوان «مات الرجل» يرى أحمد لطفي السيّد باشا في تولستوي صفات الهادي إلى الفضيلة والواعظ يقول: «المصيبة بفقدان هذا الحكيم مصيبة كبيرة».

ويذكر في مقالته أنّ تولستوي كان يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه، يحب السلام، يرى في الدين أنّه طهرٌ للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب.

«فإذا كان تولستوي ليس رجل روسيا وحدها؛ بل رجل العالم والسلام، وإذا كان تولستوي ليس مسيحيًا محدودًا بمذهبٍ معينٍ متعصبًا له؛ بل متسامحًا يقبل دين الفضيلة حيثما

وجد... فأخلق بمصيبة تولستوي أن تكون كما قدمنا خسارةً عالميةً، لا خسارة روسية أو خسارة مسيحية».

ويرى أحمد لطفي السيد أنّ تولستوي كتب رواية «البعث» بواقعيةٍ لم يكن منها عن الشهوات إلا حقائق عريانة، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبل في نفس بطل الرواية، ووصف فساد العدالة، وبعث أخلاق بطل الرواية. ويتحدث أحمد لطفي السيّد باشا عن رواية «لحن كريتسر». ويكتب عن الكاتب الروسي:«حسب تولستوي في أنّه خالد الأثر في حكمته وتعاليمه إنّ حياته الطويلةَ إنّما قضاها في صرف ملكاته وماله لخير الناس» (٤ص١٩٦).

الصحافة العربية ورثاء تولستوي

كذلك رثت الصحافة العربية تولستوي. فلقد ذكر مراسل جريدة: «الأخبار الروسية» في بيروت: «كل الصحافة العربية، بغض النظر عن الاتجاهات السياسية والعقائد الدينية، الصحافة المسيحية والإسلامية والماسونية والإنجيلية، المعتدلة والمتطرفة، المجلات والجرائد كلها، حتى المنشورات المتواضعة كلها، بدون استثناء رثت تولستوي «حكيم موسكو العظيم» أحد عظماء العالم القلائل «المعلم والواعظ والفيلسوف». وبعد ذلك يسمّي المؤلف الجرائد والمجلات التي رثت تولستوي: «المراقب» «الحضارة»، «الأهرام»، «الزهور»، «لسان الحال»، «البرق»، ذكرت الصحافة العربية شمائل ليف تولستوي الحميدة وطالبت الشعراء والكتّاب الدفاع عنه بكلمتهم. ويعلل مراسل جريدة «الأخبار الروسية» شعبية تولستوي بين القراء العرب بأنّه كاتب واسع الأفق ومعتدل الرأي فنجد في نظراته إلى الحياة بعض الأفكار المسيحية والإسلامية والماسونية والاشتراكية. ويرى مراسل الجريدة المذكورة، بأنّ تولستوي جعل مكانة الشعب الروسي لدى شعوب الشرق أكثر احترامًا من ذي قبل.



الفصل الثاني

تولستوي وشعلة التنوير

(أدبه .. فلسفته .. إبداعه)

لو أن الحياة استطاعت أن تكتب
لكتبت مثلما فعل تولستوي..

الناقد شارل دو بوس

تولستوي

من حب الأدب إلى بحر الإبداع

مما لاشك فيه أن تولستوي بدأ حياته بميل وشغف تجاه الأدب بكافة أجناسه المختلفة؛ وربما كانت بدايته متمثلة في سماع الحكايات والقصص العربية المثيرة؛ حيث كان يستمع بإعجاب شديد إلى ما يقصه الفلاح العجوز الأعمى «ستيبان» من قصص ألف ليلة وليلة، والسندباد، والشاطر حسن وغيرها من الحكايات العربية التي علقت في ذهن تولستوي حتى وفاته وأثرت في إبداعاته أيما تأثير مثلما ظهر جليًا في روايته (آنا كارنينا) كما سيجيء بيانه لاحقًا.

تولستوي مدرسة أدبية

لقد استطاع تولستوي منذ اللحظات الإبداعية الأولى في حياته أن يختط لنفسه مهيعًا أدبيًا واضحًا يعد فيه رائدًا بالنسبة لمن يأتي بعده؛ من كتاب ومبدعين. فقد كان بناؤه لعمله الإبداعي بناءً متميزًا من حيث إطاره الفني الذي يبدأ من خلاله في سرد الأحداث ومن حيث اختيار شخوصه الذين يقومون بأحداث الرواية والقصة، ومن حيث الوصف المتميز ومن حيث الزمان والمكان، ومن حيث الحبكة الفنية الرائعة المثيرة التي تصل بالقارئ إلى أعلى درجات التأزم والتعقيد؛ ثم يأتي بعد ذلك بلحظات التنوير التي تحمل فلسفة الهدف من العمل ذاته الذي أراد تولستوي أن يحمله للقارئ.

إن تولستوي لا يباشر القارئ بالهدف الذي يريد أن يوصله له، ولكن يترك الأحداث والشخصيات تتفاعل مع بعضها حاملة في النهاية ما يريد أن يقوله هو للقارئ؛ لذا لا غرو أن قلنا إن تولستوي مدرسة أدبية مكتملة الجوانب. فمن حيث الوصف لا تكاد تجد في كل الآداب كاتب يضاهي تولستوي في وصفه للجسد البشري. وبالرغم من أنه يسئ استعمال التكريرات إلا أنه في العادة يصل إلى ما يحتاج إليه منها.

الوصف عند تولستوي

كما أن تولستوي لا يعاني مطلقًا من التطويلات والإطنابات الوصفية المألوفة لدى الكتاب والمبدعين الآخرين. إن تولستوي بسيط وموجز (بكسر الجيم) أكثر ما يكون الإيجاز؛ فهو لا يختار سوى الملامح القليلة سواء منها ملامح الوجه غير الملحوظة أو ملامح الشخصية ولا يقدمها كلها مرة واحدة بل يقدمه شيئًا فشيئًا موزعًا إياها على نطاق القصة برمّتها وناسجًا إياها ليجعل منها شبكة حية من الفعل.

ولنأخذ مثالًا على روعة الوصف عند تولستوي من خلال روايته (آنا كارنينا) ومن قرأ الرواية يلاحظ التأثير الذي حدث لدى فرونسكي عندما قابل «آنا كارنينا» لأول مرة؛ فتولستوي جعل القارئ يستطيع في لحظة واحدة بسيطة أن يتعرف على آنا كارنينا وأنها تنتمي إلى أصل رفيع، وأنها جميلة جدًّا وأن شفتاها حمراوان وعيناها الرماديتان تشعّان ولكنهما تبدوان سوداوين بسبب كثافة رموشها، و«أن فيضًا زائدًا من الحياة قد ملأ كيانها إلى حدٍّ استبان فيه على الرغم منها تارة في بريق عينيها وتارة في ابتسامتها».

ثم بينما تمضي القصة في تقدمها تضاف السمة إلى الأخرى، إضافة تدريجية لا يكاد يشعر بها القارئ ويضاف كذلك الملمح إلى الملامح الأخرى، وعندما تعطي يدها إلى فرونسكي يتملكه السرور (كما لو كان متملكًا بشيء استثنائي مع الشدة القوية التي شدت بها بجسارة على يده وكذلك أيضًا عندما تتحدث آنا مع زوجة أخيها تأخذ آنا بيدها «يدها القوية الصغيرة»، ومعصم هاته اليد «نحيف ضئيل» ونرى نحن «الأصابع الناحلة المستدقة» التي تنفرط عنها خواتمها انفراطًا يسرًا.

فنلاحظ من خلال الوصف السابق أن تولستوي لم يقدم وصفًا خاصًّا ليد زوجة أخي آنا كارنينا، وإنما طرح وصف يدها من خلال الموقف الحادث وهو قبض يد آنا على يد زوجة

أخيها فهنا لا يكاد القارئ يشعر بالوصف لأنه لم يحشره حشرًا متنافرًا بل أخر ذكره في الوقت المناسب ليكون في المكان المناسب من القصة؛ لذا تجد الوصف متلائمًا مع سرد الأحداث بحيث أن القارئ لا يستطيع أن يلم بوصف وبصورة الشخصيات إلا مع نهاية العمل الأدبي سواء أكان قصة أو رواية.

إن براعة تولستوي هي متمثلة في المقام الأول في دقة تصويره للجسد، وهاته الموهبة في الاستبصار داخل الجسد البشري تؤدي في الحقيقة بتولستوي إلى تجاوز الحدود المألوفة في الوصف وإن كان ذلك لا يحدث إلا نادرًا. فتولستوي وصف وصفًا مضبوطًا كيف يشرع الحصان بالحركة عندما يلمسه سوط أو مهماز الراكب يقول: (لامس ياكوف حصانه بالمهازين فأخذ الحصان في ارتباكه يحرك سيقانه ثلاث مرات غير عارف بأي من أطرافه يبدأ الجري ثم ارتد إلى الوراء وبعد ذلك قفز».

وفي الأسطر الأولى من روايةآنا كارنينا يتعجل تولستوي في إخبار القارئ كيف أن استيبان اركاديفتش أو بلونسكي الذي لم نعرف بعد عنه أي شيء (يسحب كثيرًا من الهواء إلى تكوينه الصدري العريض) وكيفأنه يسير (بخطواته السريعة المعتادة مصعدًا إلى أعلى القدم التي تحمل كيانه الممتلئ حملا خفيفًا) وهذه السمة الأخيرة لم يذكره تولستوي حشوًا في الرواية ولكن لها دور هام فهي تسجل المشابهة العائلية للأخ ستيبان مع أخته آنا كارنينا.

ومن هنا يمكننا أن نقول إن الوصف يلعب دورًا هامًّا وحيويًّا في أعمال تولستوي، فهو لا يورد الوصف في العمل الفني لمجرد الحشو وزيادة صفحات الرواية أو القصة، وإنما له دور فعال ومكمل.

وسر براعة الوصف عند تولستوي دون غيره من الأدباء قد يرجع إلى أنه يلاحظ أمورًا لا يلاحظها الآخرون؛ لأنها في نظرهم مبتذلة غاية الابتذال ولكنها حين تضاء بالوعي؛ فإنها

نتيجة كونها ذات طبيعة مألوفة مبتذلة بالضبط تتخذ لديه صفة ما فوق المعتـاد. وهكـذا فقـد قام تولستوي باكتشاف يبدو أنه من اليسير جدًّا ومن الهين جدًّا ولكنه نـدّ عـن كـل المـراقبين لألوف من السنوات وهذا الاكتشاف هو أن الابتسامة تنعكس لا على الوجه فحسب، بـل كذلك في رنة الصوت وأن الصوت كالوجه يمكن أن يكون مبتسمًا؛ ومثـالًا عـلى ذلـك فـإن بلاتون كاراتاييف في الليل حينما لم يكن بيير يرى وجهه؛ فإنه يقول شيئًا لـه «بـصوت متغـيّر بفعل ابتسامة» فهنا تركت الابتسامة أثرًا في الوجه كان تولستوي أيضًا هو أول من لاحظ أن صوت حوافر الخيل كان «صوتًا شفّافًا».

ومما سبق يمكننا أن نستنتج أن تولستوي نسيج وحده في الوصف الذي يبهرنا به في كل أعماله الإبداعية.

اللغة في إبداع تولستوي

اللغة تحدثننا فيما مضى عن الوصف لـدى تولـستوي، والوصـف لا يكـون في الأعـمال الإبداعية إلا بالكلمات، والكلمات هي مكون اللغة بوجه عام، واللغة الإبداعية بوجهٍ خاص؛ لذا نقول:

- **كيف كانت اللغة عند تولستوي؟**

في حقيقة الأمر إذا استطردنا في النظر إلى السمات المميزة في لغة تولستوي فلن نجد سمة مميزة في لغة تولستوي كما هو الأمر عنـد الأدبـاء الروسـيين الآخـرين؛ فقـد لاحـظ الناقـد فينوغرادوف تكرار الفعل في نثر بوشـكين وحـب تورغينيـف للـصفات والظـروف وميـل غونشاروف للاسم. وبالرغم من ذلك لا نجد تحيزًا واضحًا من تولستوي تجاه أي مـن هـذه الأمور.

ببساطة شديدة نقول من خلال تأمل أعمال تولستوي الإبداعية نجد أن اللغة الفنية عند تولستوي كانت تنماز بالبساطة والوضوح والابتعاد عن التعقيدات اللغوية.

فلغته الفنية كما وسمها النقاد هي لغة بسيطة وموزونة لا تعاني من المغالاة في استعمال الصفات. فعندما يكون الشعور المراد وصفه من الخفاء والجدة بحيث لا يمكن لمجموعة من الكلمات أن تعبر عنه فهو يستخدم تدرّجات من الأصوات المشابهة لأصوات الأشياء في الطبيعة وهي الطريقة التي تساعد الأطفال والناس البدائيين على تركيب لغتهم.

في هذيانه وغيبوبته سمع الأمير بولكونسكي صوتًا هامسًا يؤكد بدون انقطاع في الزمان (آي بيتي بيتي بيتي) ثم بعد ذلك (آي تي تي) ثم بعد ذلك (آي بيتي بيتي بيتي) ثم مرة أخرى (آي تي تي). وفي الوقت نفسه وعلى صوت هاته الموسيقى المهموسة شعر الأمير أندريه أنه على وجهه وفي منتصفه بالضبط كان يتحرك كيان هوائي غريب من الإبر الدقيقة أو القطع الصغيرة غاية الصغر، وقد أحس ولو أن الأمر كان عسيرًا عليه أن من الضروري له أن يبقى على توازنه بكل قوة من أجل أن لا يقع ذلك النسيج الرقيق.

ولكنه وقع بالفعل ثم صعد صعودًا من جديد على صوت الموسيقى الهامسة التي كانت توقع صوتها إيقاعًا منتظمًا (إنها تصعد .. إنها تصعد!! لو أنها تكسرت شظايا وانتشرت مع ذلك) قال ذلك في نفسه (أي بيتي بيتي بيتي، ثم قرقعة. فلقد اصطدمت عليه ذبابة).

إيفان إيليتش وهو يتذكر قبل موته ثمر البرقوق المطبوخ (والذي ينصحوني بتناوله الآن) يتذكر أيضًا (البرقوق الفرنسي المجفف حينما كنت طفلًا) وقد يبدو أن هذا التفصيل كاف وحاسم. ولكن تولستوي المبدع يمضي إلى توكيده إلى أبعد من ذلك؛ حيث جعل إيفان إيليتش يتذكر الطعم المخصوص لثمر البرقوق (ووفرة اللعاب حين تستمر في أكله إلى النواة).

وبهذا الإحساس باللعاب الناجم عن نواة ثمر البرقوق تتصل في ذهنه سلسلة كاملة من ذكرياته عن مربيته وأخيه وألعابه وطفولته برمتها وهاته الذكريات تثير بدورها فيه مقارنة بين تلك السعادة في طفولته وبين يأسه الحالي وخوفه من الموت وهو يقول في نفسه (لا حاجة لذلك؛ فهو أشد من أن يحتمل).

ولغة تولستوي من حيث التركيب اللغوي نلاحظ في بعض الأحيان بالرغم من سهولتها اللفظية ووضوحها الدلالي إلا أنها تبدو معقدة ومتشابكة من حيث التركيب اللغوي، أو البناء التركيبي للجمل ذاتها مثال ذلك قول تولستوي: (ثم إن تعبيرًا فرحًا هو في الوقت نفسه حزين يطلب المغفرة لفرحه استقر على وجه ناتاشا) وهذا الأمر يشير إلى ميل تولستوي الملحوظ أن يدخل بين الصفة والاسم تعبيرًا وصفيًّا رئيسيًّا أو تعبيرًا فعليًّا رئيسيًّا كما لو كان جملة معترضة بين الكلام موضوعة بين شرطتين.

ولوحظ أن ميل تولستوي في بنائه التركيبي لا يقتصر على الجمل فقط وإنما يتعدى ذلك إلى فقرات بكاملها في أسلوب تولستوي نجدها تنوء بحمل مثل هذا النوع من التركيب فتصير بذلك متعثرة ومتشابكة. وقد لاحظ شيخوف هاته الحقيقة في اللغة التركيبية عند تولستوي، ورأى فيها فضيلة لتولستوي يقول شيخوف: (ألم تحظ لغة تولستوي؟ فقرات ضخام، وجمل متكوّمة إحداها على الأخرى. ولا تظن أن هذا يحدث بحكم الصدفة أو أنه نقيصة عنده، إنه فن وهو لا يأتي إلا بعد عمل جهيد؛ فهذه الفقرات تخلق انطباعًا بوجود قوة لديه).والتجربة الحسية عند تولستوي لا تنضب؛ وكأنه عاش حيوات كثيرة في حياته؛ فهو يتوغل في الإحساس غير الاعتيادي للجسد المعرى لفتاة صغيرة قبل أن تذهب إلى حفلتها الراقصة الأولى. ثم يتقدم أيضًا في مشاعر امرأة طاعنة في السن وتعيا من حمل الأطفال وهي (ترتجف حينما تتذكر ألم أثدائها المرتجة، ذلك الذي عانته مع كل طفل تقريبًا).

ثم إنه يتعرف عميقًا على إحساس وشعور امرأة وهي ترضع طفلها وهي لم تفصل بعد الصلات السرية بين جسدها وطفلها، والتي (تعلم علم اليقين بسبب زيادة حليب ثدييها، أن الطفل لا يتغذى منها تغذية كافية). وكذلك الأمر فإن تولستوي لا يقتصر فقط على التعرف على أحاسيس البشر وإنما يتعرف أيضًا على إحساس الحيوانات؛ مثل تعرفه على إحساس كلبة ليفين التي يبدو لها وجه سيدها مألوفًا؛ ولكن عينيه (غريبتان على الدوام عندها).

ومن ذلك نقول إن اللغة الإبداعية لدى تولستوي هى لغة بسيطة موحية وشفافة؛ تؤدي الغرض وزيادة في التعبير عن الأحداث المروية. وتنقل لنا الوصف نقلًا رائعًا ودقيقًا.

شخصيات تولستوي

من المعروف أن الشخصيات في العمل الفني والإبداعي هي تتحرك وتتفاعل داخل الأحداث، وتعامل تولستوي مع شخصيات أعماله الأدبية يختلف نوعًا ما عن غيره من الأدباء والمبدعين. فقد بنى تولستوي غالبية مخلوقاته الأدبية في متاهة من التناقضات وفي بعض الأحيان عبر تشابكات وتعقيدات كأنها – على حد تعبير النقاد – متاهة اللايبرنث* ولكنه مع ذلك لم يضع نفسه في مسالكها أو مجاهلها؛ فلقد كان يمسك دائمًا بيده خيطًا يحرك به الشخصيات كيفما شاء ووقتما شاء، وكأنه خيط اريان الأسطوري.

ويرى غالاغان أنّ موقف تولستوي من شخصياته هو موقف أخلاقي (١٤٢ ص٧٧) يحاول أن يظهر الأحداث من خلال تجربة الخير والشر ومن خلال القانون الأخلاقي. وهذا واضح في مخطوطات «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩)، فهذه الرواية يمكن فهمها على أنها رواية أخلاقية، أكثر مما هي رواية تاريخية. ولعل نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) هو

* اللايبرنث: هو في الأساطير الإغريقية يمثل البناء المعقد المسالك والممرات الذي بناه ديدالوس بأمر من مينوس ملك كريت لكي يؤدي المينوتور الوحش الذي قتله تيسيوس بأن أعانته «اريان» بخيط تمسك به لئلا يفقد طريق العودة.

الشخصية المروعة في الرواية، الذي أقدم على عدد لا يحصى من الجرائم، التي أدت إلى أن دخلت القوات الروسية إلى قلب بلده، إلى باريس. ويفهم الكاتب الاحتفالات الشعبية، والنصر على نابليون من وجهة نظرٍ فلسفيةٍ أخلاقيةٍ، أي انتصار العدالة على الظلم والشر في الحياة. وهزيمة نابليون هي هزيمة فلسفته في الحياة، فهو يقوم بدور الجلاد، لكنه يحاول أن يقنع نفسه بأنّه يهدف إلى خير الشعوب.

قائد الجيوش الروسية ما بين عام ١٨٠٥-١٨١٢ الجنرال كوتوزوف (١٧٤٥-١٨١٣) هو الشخصية المضادة لشخصية نابليون بونابرت بكلّ شيء. فلديه حس شعبي، ساعده على التعمق في مجريات الأحداث، وفهم مضمونها ونهايتها. ويبدي كوتوزوف حكمةً شعبيةً ويعتقد بأنّ الصبر والزمن شرطان ضروريان لتحقيق النصر، ولتجاوز الأزمة. يتصف كوتوزوف ببعض الصفات الشعبية العفوية. وتؤدي هذه الروح العفوية إلى البطولة الشعبية الإنسانية، التي حققها الناس العاديون البسطاء، وليس القادة، حتى ناتاشا روستوفا، التي لا تفكر بالقرارات التاريخية المصيرية، وإنّما تطيع إحساساتها العفوية الفطرية، تقوم بالمساعدة على نقل الجرحى من موسكو، وعملها هذا عمل تاريخي. ومثل هذه الأعمال البسيطة العفوية أدت في نهاية المطاف إلى النصر التاريخي على النابليونية. تتصف ناتاشا روستوفا بالصفات الشعبية البسيطة الطبيعية العفوية ولذلك يتعلق بها كلٌّ من الأمير أندريه بولكونسكي والكونت بيير بيزوخوف، الشخصية القريبة إلى قلب تولستوي فقد ظهر في بداية الرواية، واستمر حتى نهايتها، كأنه يرمز إلى الشعب الذي لن يموت.

وتولستوي كان يعرف طريقه للدخول بالشخصية إلى مسرح الأحداث في الوقت المناسب لذلك؛ إذ كان موهوبًا بحاسة قوية لمعرفة الاتجاه الذي يريده، ويمكننا أن نقول إن ميزة تولستوي العظمى أنه كان من غير انقطاع مائلًا إلى جانب من الجوانب دون غيره ولم

يكن يهمه في شيء من الأشياء أن كان انحيازه لهذا الجانب أو ذاك بسبب أنه صواب أو خطأ وكانت انحيازاته صحيحة في غالب الأحوال.

وتولستوي يعرض (بتشديد الراء) رجاله ونساءه الذين يخلقهم إلى الإبهام الرهيب الكامن في تجربة مباشرة، ثم بعد ذلك ووفقًا لطاقة المحاكاة القوية الموجودة في خياله يعبر عن ردود أفعالهم واستجاباتهم تجاه هذه التجربة. وبعض ردود الأفعال هذه ليست أكثر من وسائل للحماية ولذلك فهي تخلق استجابة مزيفة، وبعض ردود الأفعال هي من العمق بحيث إنها تصل إلى القدرة على إجراء تغيير في وجهة الوجود وتخلق استجابات صادقة ونزيهة.

وأهم ما يميز شخصيات تولستوي الفنية أن أغلبها كانت مستمدة من واقعه المعيش آنذاك؛ حيث كان تولستوي ميّالًا إلى الأعمال الواقعية التي من الممكن أن تعالج أدواء واقعه وعصره؛ كما سيجيء بيانه لاحقًا في الحديث عن واقعية تولستوي.

فتولستوي حين بدأ في الكتابة الإبداعية كتب ثلاثيّته الشهيرة (الطفولة – الصبا – الشباب) (١٨٥٢ – ١٨٥٧م)والتي هي في حقيقة الأمر تعتبر شبه سيرة ذاتية مستمدة من واقع حياة تولستوي على مدار مراحل حياته المختلفة بين الطفولة والصبا والشباب. وأؤكد على أنه شبه سيرة ذاتية وليست كما ظن البعض واعتبرها سيرة ذاتية لحياة تولستوي. فتولستوي في هاته الثلاثية لم يتحدث عن نفسه وحياته بصورة مباشرة توحي أنها ترجمة لحياته وإنما شخص الشخوص المختلفة للتعبير عن مراحل الحياة المختلفة التي يمكننا أن نقول إنها تلتقي في أغلبها مع حياة تولستوي، ثم يكمل بعد ذلك ثلاثيته بكتابة رواية «البعث» وهي عمل شيخوخته.

كذلك الأمر في قصته (سعادة عائلية) التي استوحاها تولستوي من تجربته الشخصية وأملاها على تولستوي انحياز شخصي. وتلك التجربة هي عبارة عن خطبة أخفقت – وكما رغب تولستوي في الاعتقاد – بسبب خطأ من جانب الفتاة. وعلى الرغم من أساسها المستند على السيرة الذاتية وعلى الرغم من الانحياز الشخصي لمؤلفها فإن قصة (سعادة عائلية) تنتهي بأن تكسب القارئ إليها بما فيها من حكمة بسيطة كأنها الأمثولة والخرافة الأخلاقية.

وكذلك الأمر فإن أشهر روايات تولستوي على الإطلاق وهي الحرب والسلام واقعية من هذا المنطلق؛ حيث إنها تُعبّر عن أحداث حقيقية حدثت بالفعل في تاريخ روسيا عندما قام نابليون بونابرت بغزوها.

بل من النقاد من قال – وهو ارموند ويلسون: إن شخصية ناتاشا في رواية الحرب والسلام هي أخت زوجة تولستوي والتي تدعى (تاتيانا أندريفنا بيرز) وكانت في السادسة عشرة من عمرها حين تزوج تولستوي بأختها وكانت فتاة مرحة جذابة مفعمة بالحيوية، وقد عاشت كثيرًا مع تولستوي وزوجته في ضيعته ياسنايا بوليانا، وظلت متعلقة بهذا المكان حتى إنها رجعت تعيش فيه مع ابنة تولستوي بعد وفاة زوجها. وقد استمد تولستوي من شخصيتها كثيرًا في أعماله الأدبية. وكان كثيرًا ما يقول لها إنك تدفعين أجرة مقامهك بكونك تجلسين أمامي كنموذج لأدبي.

أسلوب تولستوي

لا مشاحة أن أسلوب الكاتب والمبدع مستمد في المقام الأول من لغته؛ وبما أن تولستوي له لغته الإبداعية الخاصة التي ترتكز على البساطة في المقام الأول فيمكننا أن نقول أيضًا إن له أسلوبه الخاص الذي يميزه عن بقية الروائيين الآخرين. فالأسلوب كبصمة الإصبع يختلف من واحدٍ إلى آخر.

فإذا ما قرأ أحد الأشخاص كتابًا أو كتابين لتولستوي؛ فإنه لن يخلط بعد ذلك بين لغة تولستوي ولغة دستويفسكي أو تورغينيف أو غوغل أو ليسكوف. فليس هناك من إمكانية للخلط حتى في الترجمة الإنجليزية أو العربية.

ومن خلال قراءة أعمال تولستوي يمكننا أن نقول أسلوب تولستوي يعتمد على قولبة الأشخاص والأشياء والأفكار والأشياء والأحاسيس بطواعية تشكيلية هائلة وذلك بدون تزويقات وتنميقات وفسيفسات ومجازات ومقارنات. كما أن أسلوب تولستوي أسلوب حكائي يعتمد في المقام الأول على تقنية أو تكنيك الشكل المفتوح كما سيجيء بيانه لاحقًا.

ويمكننا أن نأخذ مثالًا على ماسبق ذكره بشأن الأسلوب من خلال ثلاثية تولستوي (الطفولة – الصبا – الشباب) يقول تولستوي:

(أنت لتذهب إلى حديقة التفاح وربما زحفت إلى منتصف أيكة التوت الأرضي العالية الكثيفة الكثيرة النماء وهناك فوقك السماء النقية الحارة، وحولك شجيرات التوت الأرضي الخضراء ذات الأشواك المختلطة بالعشب الضار... والعشب الأخضر الشبيه بالإبر وقد مدت الشجيرات ذات الثمار الشائكة طريقها عبر أوراق السنة الماضية وقد بللها الندى وصارت خضراء ريانة بفعل الظل الدائم كما لو أنها لا تعلم شيئًا عن الكيفية التي تشعّ فيها الشمس إشعاعًا لماعًا فوق أوراق شجرة التفاح... في هذه الأجمة هناك رطوبة دائمة وهي تفوح برائحة الظل الملازم الكثيف وبرائحة خيوط العنكبوت وبالتفاحات الواقعة وقد أخذت تصير سوداء وهي ملقاة فوق الثرى الناعم والتوت الأرضي وغالبًا برائحة ديدان الخشب التي تقوم بابتلاعها مع التوت، وعندها تأكل توتة أخرى بأسرع ما يمكن...).

وهناك سمة خاصة بأسلوب تولستوي في رواية الحرب والسلام التي يعتمد فيها على التكرار. وهناك أنواع عديدة من التكرار يلاقيها المرء في الأعمال النثرية الروائية التي يقرأها.

وأن روائيًّا يكتب بطول ما يكتب تولستوي لا يستطيع أن يقول الشيء مرة واحدة فقط. فهو مرغم على نحو يزيد أو يقل على إعادة مقطع من المعلومات مرة واحدة على الأقل إذا كان يحمل عنده مغزى. ولكن تولستوي في التكرار لا يكتفي بإعادة قول الشيء مرتين فحسب؛ فما أكثر المرات التي يخبرنا فيها أن جولي كوارغين صارت وارثة ثرية إثر وفاة أخيها وأن الجنرال كوتزوف كان يمضي أوقات فراغه في الكتابة إلى مدام دي ستايل وقراءة الروايات الفرنسية، وأنه كان هناك قش تحت نوافذ بيت بوزخوف المحتضر، وأن الرسول الفرنسي ميشو لم يكن يعرف الروسية. وهذه الحقائق تتكرر مرتين أو ثلاث مرات أو حتى أربع مرات، وتكرارها يعين الذاكرة ويسهل كذلك عملية القراءة.

إن هذا التكرار هو تنازل يقوم به المؤلف حيال القارئ ولكن ليس هناك من شك في أن تولستوي كان في هذا المضمار مراعيًا أكثر مما يجب لمزاج القارئ.

وهناك نوعٌ آخر من التكرار وهو نوع يتصف به تولستوي اتصافًا خاصًّا ألا وهو الإعادة المستمرة لتفصيل خارجي الغرض منه تشخيص فرد ما ورسمه. وهذا التكرار لا علاقة له بكون الرواية طويلة وأن القارئ ذاكرته ضعيفة. فما من أحد يخفق في ملاحظة جوهر الشخصية التي يبتدعها تولستوي من جراء تقطيرها في أسلوب حركي معين أو علامة خارجية مرئية تعود كل واحدة منها دون انقطاع وتصير ملكًا ثابتًا لتلك الشخصية.

ومثل هاته الصفات لا تتكرر أمامنا لكي تذكرنا بشيء قد نسيناه؛ ولكن تكرارات تولستوي مشابهة إلى اللحن المعاود الدال (لايتموتيف). إنها تمنح الهوية لشخص بواسطة شيء أكثر دلالة من اسمه المجرد وشيء أقل تحجرًا من صفة مألوفة جاهزة.

وهناك نوع آخر من التكرار كان تولستوي ميالًا إليه يكشف أيضًا عن الصعوبة في فصل الكلمات عن الأفكار التي تعبر عنها؛ فليس هناك من أحدٍ قرأ رواية «الحرب والسلام» قراءة متأنية قد أخفق في ملاحظة تكرار كلمات أو عبارات مثل (من خصائص فلان) أو (بسيط) أو (طبيعي) أو (كما هي الحالة دائمًا) أو (كل هذا ينبغي أن يكون كذلك).

وللقارئ أن ينظر دائمًا إلى التعبير المتكرر المعاد استخدامه على أنه لا يزيد على أنه أسلوب لغوي اعتاده تولستوي وهو طريقة يختص بها مؤلّف ولا يختص بها مؤلف آخر. وتولستوي حين يكرر الكلمات نفسها فإنه يريد في الوقت نفسه أن يكرر الأفكار ذاتها وهي لا يمكن تكرارها تكرارًا مضبوطًا إلا باستعمال متكرر للشكل الذي حدثت فيه.

والتكرار عند تولستوي في تقديم الكلمات والجمل والعبارات؛ إنما هو طريقة مخصوصة به للوصول إلى التوازن والإيقاع. وما دمت تعرضت لقضية التوازن أحب أن أشير إلى ما لا حظه بعض النقاد وهو (ار. اف. كريستيان) في الحرب والسلام من مراعاة تولستوي لتيمة التوازن في الكتابة يقول:(كان تولستوي ولوعًا بطريقة بلاغية كلاسيكية في تنظيم مادته على أساس مجموعات ثلاثية – فهناك ثلاث صفات وثلاثة أسماء وثلاثة أفعال وثلاثة من حروف الجر؛ ولنأخذا على سبيل المثال الجملة التالية التي أدخلت فيها الأحرف والأعداد:

[لدى عودته إلى موسكو من الجيش جرى الترحيب بنيكولاي روستوف (أ) من قبل حلقة أهل بيته لأنه (١) أفضل الأبناء (٢) ولأنه بطل (٣) ولأنه حبيبهم نيكولينكا (ب) ورحب به أيضًا معارفه لأنه (١) ملازم وسيم في الخيالة و (٢) لأنه راقص بديع و (٣) لأنه واحد من أفضل المرشحين للزواج في موسكو]*

ويمكننا أن نضيف إلى جانب التكرار سمة أسلوبية أخرى عند تولستوي وهي بروز الخطأ النحوي أو القواعدي عند تولستوي؛ فتولستوي في واقع الأمر لم يكن متزمتًا أكاديميًّا فيما يتعلق بالنحو واللغة المتكلفة. فقد كانت القواعد النحوية تزعجه ولن يجد الطالب نموذجًا يحتذى من التلاؤم النحوي. ومثل هذه الأغلاط في النحو الروسي عند تولستوي وغيره يمكن أن نعزوها إلى تأثير النحو الفرنسي على اللغة الروسية.

خلاصة القول أن التكرار على نحو أو آخر هو أشد سمات الأسلوب عند تولستوي وضوحًا.

* تولستوي تحرير رالف ئي ماتلو ترجمة نجيب المانع صـ ١٨٥.

قصص تولستوي الشعبية والأمثال

لاحظ بعض النقاد أن كثيرًا من قصص تولستوي الشعبية هي من حيث الشكل والمضمون لا تختلف عن الأمثال، وكان هذا الجنس الأدبي مهمًا بالنسبة لتولستوي؛ لأن السيّد المسيح نفسه حدّث الناس بالأمثال.

كتب تولستوي في أحد الأمثال عن الإنسان الذي حدّث الفلاحين عن ضرورة قلع النبات الطفيلي من جذره. وحارب السيّد المسيح عيوب الناس من جذورها. «سمعتم أنّه قيل: لا تزن. أمّا أنا فأقول لكم. إنّ كلّ من نظر إلى امرأة حتى ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» «سمعتم أنّه قيل للأقدمين: لا تقتل، فإنّ من قتل يستحق المحاكمة. أمّا أنا فأقول لكم: إنّ كلّ من غضب على أخيه يستحق المحاكمة» لأنّ الغضب هو شروع في القتل.

«قلت – كتب ليف تولستوي عن نفسه – إن الشر بموجب تعاليم السيد المسيح، لا يعالج بالشر نفسه. وإنّ معالجة الشر بالعنف تزيد من الشر نفسه، فبموجب تعاليم السيد المسيح، يقتلع الشر بالعمل الطيب.... وقلت، إنّ تعاليم السيد المسيح، تنصّ على أنّ الحياة كلّها صراع ضد الشر بالعقل وبالمحبة». (١٠٥ ص٥٩).

نشر تولستوي في عام ١٨٨٩ مثال «الأبناء الثلاثة» ويرمز الكاتب بشخصية الأب إلى اللهّ وبالأبناء إلى الناس. فعاش الابنان الأكبر والأوسط ليس كما يحب الأب. عاش الأكبر للمرح وحده، ولذلك خسر كلّ أرزاقه. وعاش الأوسط حياةً أنانيةً من أجل نفسه فقط، فقتل نفسه، دون أن يفهم إرادة الأب. الابن الأصغر وحده كان يعمل الخير للناس، وثبت أنّه عاش كما كان يريد الأب. وهذا يعني: «إن كلّ ما نعرفه عن الأب أو عن الله أنّه يعطي للناس الخير، ويطلب منهم أن يفعلوا مثله، أي أن يقدموا الخير للآخرين». (١٠٢ص٣٠٤) تذكرنا هذه القصة بأسطورة «إيفان المجنون....» لأنّ فيها ثلاثة أخوة. والأخ الأصغر يعيش بمخافة الله. هو مع الله، والله معه.

تولستوي
وتكنيك الشكل المفتوح

من المعروف لدى الجميع أن الرواية مهما تكن طريقة حكايتها إلا أنها في النهاية تمثّل شكلًا مغلقًا من السرد؛ فهي قصة تبني حادثة خارجية أو حادثة داخلية وتقودها إلى ختام نهائي حاسم.

إلا أنه لم يكن بإمكان تولستوي الثائر على ما حوله، الناقد المتمحّص في كل شيء؛ لم يكن بإمكانه أن يتقبل قوالب الحكي التقليدية على علّاتها دون أن يضيف شيئًا تولستويًّا خاصًّا بأعماله وكتاباته. فقد حاول تولستوي الخروج عن مألوف الأسلوب الروائي التقليدي عن طريق ما أسماه النقاد بـ (تكنيك الشكل المفتوح).

- فماذا يقصد إذن بالشكل المفتوح؟!

الشكل المفتوح هو شكل من أشكال السرد الروائي والفني يستعمل في المسرح والرواية؛ ويتميز هذا الشكل من السرد بانتفاء المركزية لشخصية من الشخصيات؛ أي لا توجد في الرواية أو العمل الفني شخصية يمكن أن تسميها شخصية البطل.

وكذلك أيضًا من أهم سمات تكنيك الشكل المفتوح انعدام الحبكة الفنية في داخله؛ حيث يتم الاستغناء عن التشويق والإثارة داخل الرواية ويتم الاكتفاء بالوصف والصور المتعددة وتأخذ كل شخصية دورًا معينًا دون أن يكون لشخصية ما من الشخصيات مركزية محددة.

ويرجع الفضل لتولستوي في تقنينه لهذا الون من ألوان السرد والحكي؛ وقد ظهر ذلك في باكورة أعماله الإبداعية؛ فالشكل المفتوح يسير تعرفه في ثلاثية تولستوي (الطفولة -

الصبا – الشباب)؛ فنجد هذه الثلاثية مكونة من صور صغيرة للحياة في سلسلة هي بذاتها مفتوحة إلى ما لانهاية ويمكن النظر إليها على أنها مستمرة استمرارًا إراديًّا من النقطة التي اختتمت به اختتامًا بفعل الصدفة.

ومن الواضح أن هذا البنيان موصول اتصالًا لا ينفصم مع طبيعة ذات السيرة الذاتية وفي الحق وبمعنى أوسع من ذلك؛ فإنه موصول بالتناول المباشر للحياة كما ذكر آنفًا ومن هذا تبدأ سيرة شبابه.

تطور أشكال السرد من تولستوي إلى الغيطاني

ومن الجدير بالذكر أن الروائي «جمال الغيطاني» يعد من أهم الروائيين المجددين لأشكال السرد دائمًا بل من أهمهم تبنيًّا للشكل المفتوح بعد تولستوي، ويظهر ذلك جليًّا في أعماله الروائية المتعددة مثل (الزيني بركات – التجلّيات – سفر البنيان وشطح المدينة – ودفاتر التدوين...) وغيرها من الأعمال الفنية الرائعة للغيطاني؛ فنتاج الروائي جمال الغيطاني يعتمد الشكل الروائي المفتوح الذي يمزج بين الخيالي والمعيش، تغيب عنه الحبكة و العقدة والحل في قطيعة مع الشكل الكلاسيكي للرواية؛ فعن رواية (وقائع حارة الزعفراني) يقول الغيطاني: (في وقائع حارة الزعفراني -والرواية كلها مجموعة ملفات وتقارير- استفدت من تجربة ابن إياس اللغوية على الرغم أن الموضوع ليس تاريخيًّا، كان ابن إياس يكتب أفظع الحوادث بالهدوء نفسه الذي يكتب به أبسط الحوادث، كان يوجد مسافة موضوعية بينه وبين الحدث، في الزعفراني كنت أعبر عن الأحداث بروح محايدة لأنه تقارير، ولم يكن ممكنًا محاكاة أسلوب شعري في التقارير،)

وفي روايته (سفر البنيان) نلاحظ أيضًا أن الرواية تتشكل من طبقات تؤلف فيما بينها عمارة متكاملة البنيان، ولا تبدو للقارئ في الوهلة الأولى الروابط التي تجمع بين فصول الرواية، بسبب تحرر الغيطاني من أساليب السرد التقليدية وتجاوزه أشكال الكتابة المألوفة، لكن ما هو مرئي في هذه النصوص المتراصة تكشف عن الخفي فيها، عن النقد الاجتماعي وروحانية التجربة الشخصية التي تبدو فيها الظاهرة غلافًا للباطن.

ففي كل مرة يقف فيها الغيطاني في هذا النص أمام مصطلح معماري (باب، حامل ومحمول، فناء، أساس، قبو، درج، موقد، كتابة)، ينطلق ليؤلّف منه حكاية، وكل حكاية هي بناء لحياة، لحركة، لدفعة، لدفقة ضوء في ممر إنساني مهجور؛ حكايات يختار لها عناوين معمارية دالة (خبيئة، رياح، عاقبة، بستان الخضر، غمامة، هودج، جهات، ممرات، قصر، ربما، نزل).. ويستمر الغيطاني بنفس صوفي يتأرجح بين الظاهر والباطن، بين البوح والكتمان، ليحكي ويعد بالحكي ثم الحكي.. دون أن يقفل باب العمارة في نهاية النص.

وقد تأثر كثير من الروائيين بأسلوب تولستوي وثلاثيته ومن الروائيين العرب الذين تأثروا بثلاثية تولستوي وكذلك بالشكل المفتوح الروائي الكبير نجيب محفوظ في ثلاثيته الخالدة (بين القصرين – قصر الشوق – السكرية).

العودة إلى تولستوي

نعود إلى الحديث مرةً أخرى عن الشكل المفتوح عند تولستوي؛ ويمكننا أن نقول ما أقره النقاد من أن السمة الرئيسية لكل حكايات تولستوي في الخمسينيات من القرن التاسع عشر ليست هي القصة بقدر ما هي الصورة التي يعمل تولستوي على توسيعها ومدها بتفصيلات بصرية أكثر وباتجاهات كثيرة أوفر.

وكما قلنا سابقًا أن المبدأ الإجرائي الذي ينتج هذا الشكل من السرد (الشكل المفتوح) يسمى مبدأ (اللامركزية) ومن خصائص هذا المبدأ أنها ليست متمحورة حول شخصية مركزية تقاد نحو أجواء متعددة وتكوينات كثيرة من الناس والأشياء، وذلك من أجل عرضها كلها (أي: الأجواء والناس والأشياء) من خلال عيني هاته الشخصية المركزية التي تسمى بشخصية البطل كما هو معتاد في الأسلوب الروائي والقصصي.

وإذا أخذنا رواية (الحرب والسلام) وحاولنا أن نستمد من خلالها ما قلناه عن الشكل المفتوح. سنجد أن تولستوي في هذه الرواية أحرز لأول مرة أعلى درجات سيطرته الملحمية ودخل ميدان الأدب العالمي. وهذا يعني في الوقت نفسه أن الاستغناء عن عنصر التشويق والاتجاه نحو الطابع الوصفي الخالص للصور والحكايات الذي يتطلّبه الشكل المفتوح للأعمال المذكورة آنفًا لم يعد طابعًا موجودًا في هذه التحفة الأدبية الكبرى.

من هنا وبنظرة فاحصة متمحّصة في الحرب والسلام نجد انتفاء الحبكة الفنية التي تعمل على الإثارة والتشويق؛ فلا توجد حبكة خاصة واحدة أو مشكلة واحدة خاصة هي التي تشكّل سمة هذه الرواية بل الأحرى أن يقال أنها ليست شيئًا أكثر ولا أقل من أنها تصوير لمقطع من الحياة من حياة الروس في فترة مخصوصة من التاريخ، وهم يحيون في الحرب والسلام وفي بيوتهم وفي مراكز القيادة الحربية وفي مكاتب الدبلوماسيين، وفي حفلات رقصهم وفي حفلات الصيد، وفي ساحات المعارك وفي مصائرهم الأشد صميمية وكذلك في مصائرهم عبر أرض أجدادهم.

كذلك نجد في (الحرب والسلام) أنه لا توجد أبطال أخلاقيون يقفون خارج الأحداث الفعلية، ولا تكون تجاربهم الداخلية ذات صلة وثقى بهذه الأحداث؛ فهنا نجد كل واحد من

هذه الشخوص العديدة الوافرة يحيا ويعاني ويفعل على نحو مترابط لا يمكن فصله عن نسيج الأحداث.

ومن ذلك نؤكد على انتفاء المركزية في الحرب والسلام؛ فكل شخص في الرواية هو كما في الحياة يكون مركزًا لحياته هو وقد تتقاطع حياته وتتلامس مع حيوات الشخصيات الأخرى؛ وعلى هذا فليس في رواية الحرب والسلام شخصية مركزية حقيقية يمكن أن تدور حولها كل الأحداث والشخوص والأماكن. فليس الأمير بولكونسكي ولا بيير بوزوخوف ولا نيكولاي روستوف ولا ناتاشا ولا الأميرة ماريا - يمكن أن نعتبره بطل أو بطلة للرواية. وإنما استعاض تولستوي عن مركزية الشخصية بأن جعل شخصيات العمل يصاحب أحدهم الآخر ثم الآخر؛ لكي يجعل هذه الشخصية المصاحبة تفترق وتنسحب إلى مدة معينة أيضًا.

فحينما نكون مع الكونت نيكولاي روستوف في كتيبته على سبيل المثال أو في صيده للذئاب عبر ضيعة أبيه؛ فنحن نشاركه في قصة حبه ونشاركه في مشكلات حياته الأخرى. وفي الوقت نفسه ننسى مبدئيًا إلى حد معين بقية الشخصيات الأخرى ومصائرهم حتى يبرز أحد منهم إلى مسرح الرواية ويصبح لفترة معينة من الزمن مركزًا لاهتمامنا.

هذا الفيض الذي لا انتهاء لجريانه ولا نهاية لوفرته وهذا الغني في صور الحياة التي تعرضها لنا الرواية.. كل ذلك لا يتحقق إلا من خلال الشكل المفتوح؛ وهذا هو سر خلود رواية (الحرب والسلام) وجعلها لا يضاهيها أي عمل فني آخر لا في نطاق أعمال تولستوي نفسه بل هي عديمة النظير في الأدب العالمي كلّه.

(آنا كارنينا) وصورة أخرى للشكل المفتوح

القارئ غير المتأمل جيدًّا للبناء الفني في رواية (آنا كارنينا) لتولستوي يمكنه أن يقول بانعدام الشكل المفتوح من الرواية. ولكن بالرغم من أن حكاية آنا كارنينا تقدم حدثًا تامًّا بذاته؛ نجد أن حبكة شخصية (آنا كارنينا) لا تشكل المحتوى الكلي للرواية؛ حيث إن حكاية «لفين» و«كيتي» تحتلان مكانًا معادلًا لهما في الرواية؛ ومن مع تفحص الرواية بشكلٍ أدق يمكننا أن نجد الشكل المفتوح مرة أخرى عند تولستوي يبرز مرة أخرى ولكن بصورة جديدةٍ غير واعية.

ففي رواية (آنا كارنينا) نجد أن مادة الموضوع لا مركزية أيضًا؛ فهناك ثلاث مجموعات عائلية وغير متَّصلة فيما بينها إلا عن طريق العلاقات العائلية التي تمت بفعل الصدفة. وكل مجموعة تحيا لنفسها في حلقتها الخاصة وكل منها مشغولة بمشكلاتها الشخصية الخاصة بها، وهي تتطابق مع واقع الحياة الطبيعية: فآل كارنين مشغولون بقصة الخيانة الزوجية، وآل شيرباتسكي مشغولون بمشكلاتهم الاقتصادية، ومصاعبهم الزوجية، كما أنهم مشغولون بزواج كيتي وليفين الذي يصبح جزءًا من العائلة وصهرًا لها مشغول بقضايا الزراعة وكذلك بأمور ضميره الخاص.

وعلى غرار الذي وجدناه في رواية الحرب والسلام نجد كذلك في رواية (آنا كارنينا) أن القارئ للعمل ينفق كذلك جزءًا من الوقت مع جماعة واحدة ثم مع الجماعة الأخرى. وليست واحدة من هذه الجماعات العائلية الثلاث متّصلة بالجماعات الأخرى؛ فكل واحد من الناس المنتمين لمدة معينة إلى واحدة منها ليس متصلًا بالآخرين إلا عن طريق التعاطف الذي يوجد بين الأقارب والأصدقاء. أي أن شخصيات الرواية ليست متّصلة مع بعضها عن طريق وحدة الفعل أو وحدة الحدث، وكل مجموعة من المجموعات الثلاث تسهم في بناء الحبكة الفنية.

واقعية الإبداع
عند (تولستوي)

لا شك أن تولستوي اتخذ من الأدب والإبداع وسيلة لإصلاح مجتمعه من أدرانه وأدوائه المتفشية. وكي يحقق هذا الهدف انطلق من الواقع في التعبير عن مشكلاته؛ بل إنه كما سبق ذكره اتخذ معظم شخصياته الإبداعية من الواقع المعيش حوله.

وفي الحقيقة لا يوجد مؤلّف آخر غير تولستوي تكون في أعماله كلية الأشياء واضحة وثرية؛ انظر في روايته الحرب والسلام ولاحظ ما بها من تفاصيل الحرب ابتداءً من البلاط إلى رئاسة أركان الجيش وانتهاءً برجال حرب العصابات وأسرى الحرب، وكذلك نجد كل وجهة من وجهات الحياة السلمية الخاصة من ولادة وممات. ونستطيع كذلك أن نتذكر حفلات الرقص والنوادي والمآدب والزيارات الاجتماعية والمؤتمرات والعمل في الحقول وسباق الخيل وألعاب الورق موصوفة كلها في رواية (آنا كارنينا). كما نجد المحكمة ومشاهد السجن في رواية (البعث).

وكل صورة من الصور التي رسمها تولستوي في أعماله الإبداعية هي مختلفة كل الاختلاف عن الصور التي يرسمها الواقعيون الحديثون؛ فصور تولستوي بالأحرى تقترب من الملاحم القديمة.

صور تولستوي هاته ليست مجرد مشاهد وليس مطلقًا مجرد صور وأوصاف، كما أنها ليست بأي شكل من الأشكال مجرد إسهامات في كلية الأشياء أو المواضيع. فإن احتفال عيد الميلاد التنكّري في رواية الحرب والسلام يشكّل أزمة في حب نيكولاي روستوف وسونيا. كما أن الخيّالة المنتصرة وهي تقوم باقتحامها تعلن عن أزمة في حياة نيكولاي روستوف.

ومثل هاته الطريقة في تقديم كلية الأشياء والموضوعات كما هو واضح عند تولستوي شرط لا غنى عنه ابتغاء الشخوص النموذجية. ومثل هذا العرض لكلية الأشياء والموضوعات يغني تولستوي كما يغني كل شاعر ملحمي عظيم عن إعطاء أوصاف جافة ومتعبة للمشهد ومما يجعل العلاقة بينه وبين المصائر الفردية علاقة عامة دائمًا وتجريدية على الدوام وبذلك تكون من فعل الصدفة.

إن عظمة تولستوي الملحمية تستند إلى هاته القدرة على الاختراع، فقصصه تتدفّق قدمًا من غير إبطاءٍ ظاهرٍ ومن دون تحوّلات حماسية، ويبدو عليها أنها تسير بخط مستقيم على طريق الحيوات الاعتيادية لشخوصه. فرواية الحرب والسلام مشحونة بهذه الصور الحية المعبأة بالدلالات البالغة حدًّا عظيمًا من الروعة؛ لنفكر على سبيل المثال في حفلة الصيد الباهرة التي نظمتها أسرة روستوف في تلك الأمسية الشاعرية مع العم العجوز كتتمة لها.

أما في رواية (آنا كارنينا) فإن العلاقة مع الطبيعة صارت أكثر وأشد إشكالية. ومما يثير أعظم الإعجاب إنما هي العبقرية التي يخلق معها تولستوي مثل صورة حرث ليفين للحقل، وجعل تولستوي تلك الصور تنمو من الطبيعة الإشكالية في علاقة ليفين مع فلاحيه وموقفه العاطفي تجاه العمل الجسدي.

وهكذا فإن تولستوي يصور عالمًا تكون فيه علاقات الكائنات البشرية بعضهم مع بعض، وبعضهم مع المجتمع مقتربة أشد الاقتراب من العلاقات المصوّرة من قبل واقعية كتاب ما قبل سنة ١٨٤٨م.

تـولسـتـوي
والأدباء العرب

من المعروف أن الثقافات والحضارات تتلاقح فيما بينه ويستمد بعضها من الآخر، وهذا ثابت عبر التاريخ كلّه. فلا توجد حضارة انغلقت على نفسها ولم تتصل بالحضارات الأخرى، ولا يعيب حضارة أو ثقافة أمة من الأمم أنها تـأثرت أو اقتبست من حضارة وثقافة أمة أخرى؛ لأن كل حضارة تُبني على انقاض حضارة أخرى منتهية، ومن هنا نستطيع أن نقول:

«إن التأثير والتأثر المتبادلين بين الآداب المختلفة أمر حتمي ودائم، فلا نستطيع الزعم بأن أدبًا حديثًا -مهما كانت أصالته وعراقته- يخلو من التأثر بآداب أمم أخرى غريبة عنه.

و«بقدر ماينفتح أدب قومي معين على الآداب العالمية الأخرى، تتوسع آفاقه، وتتعمق جذوره ويكفي أن نذكر أن العصر الذهبي لأدبنا العربي؛ كان العصر العباسي، حيث ترجمت الكثير من الآثار الفارسية، وحيث ترجمت مؤلفات الفيلسوف اليوناني أرسطو إلى لغتنا العربية، التي قامت بحفظ هذه المؤلفات من الضياع، إذ فقدت في مرحلة معينة أصلها اليوناني، وحفظت باللغة العربية، وترجمت ثانية من اللغة العربية إلى لغات العالم كله»*.

فعلى حين نجد تولستوي تأثّر بالحكايات العربية وبالأدب العربي منذ طفولته؛ نجده يؤثّر بعد ذلك في عددٍ كبيرٍ من أدباء وكتّاب العرب؛ أشهرهم نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل ١٩٨٨م، ويليه جمال الغيطاني، وغيرهما الكثير. وكان لتولستوي أتباع في كلّ أنحاء العالم، في الهند كان من أتباعه الزعيم الهندي المهاتما غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨) الذي كتب له حول ذلك. وفي فرنسا كان الكاتب رومان رولان (١٨٦٦-١٩٤٤) من أنصاره وألفّ كتابًا عنه..

* تولستوي ودستوفيسكي في الأدب العربي

فلا يوجد أدب منغلق على ذاته تمامًا، فبشكل أو بآخر، لابد من أن يتأثر أدب قومي معين بآداب العالم ولابدّ من أن يؤثر في هذه الآداب، حتى وإن بدا للوهلة الأولى أنه منعزل انعزالًا تامًا عن غيره من الآداب.

بين تولستوي والمعرّي

وعلى سبيل المثال، فقد لاحظ الأديب أمين الريحاني أنّ هناك شبهًا بين تولستوي وبين الشاعر العربي أبي العلاء المعري. وكثيرًا ما قارن الكتاب العرب والشعراء والنقّاد بين تولستوي والمعري مثلما رأينا في قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في رثائه لتولستوي وقصيدة حافظ إبراهيم من بعده التي قالها في الغرض ذاته.

- **فهل هناك شبه بين تولستوي والشاعر العربي؟**

بداية لا بد أن نتعرف بإيجاز على بعض ملامح حياة المعري الذي عاش في سجون ثلاثة فهو الذي يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفسِ في الجسم الخبيثِ

وحاول أبو العلاء المعري اعتزال الناس فأخفق بعض الإخفاق، يكتب طه حسين عن ذلك فيقول:.... ولكن داره لم تلبث أن استحالت إلى مدرسة يؤمها الطلاب الكثيرون من أبعد الأقطار الإسلامية وأدناها! منهم من يأتي من خراسان، ومنهم من يأتي من اليمن، ومنهم من يأتي من غير هذين القطرين... وكلهم يطلب عنده العلم والأدب. ويتابع طه حسين حول هذا الموضوع: ولكنه على كل حال قد حقق بعض ماكان يريد، وعصم نفسه مما كان يخشاه، فلم يتصل بالأمراء ولا بالرؤساء.

فقد لزم أبو العلاء داره لا يبرحها نصف قرن، وكذلك فعل تولستوي الذي لزم بيته وسكن في قريته حيث أمضى معظم وقته.

لم يثق أبو العلاء إلا بالعقل فهو الذي يقول:

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تُقصّ وقرآ ... نٌ ينصّ وتــوراةٌ وإنجيـــلُ

في كلّ جيلٍ أباطيلٌ ملفقــةٌ ... فهل تفرّد يومًا بالهـدى جيـلُ

رفض أبو العلاء كذلك الكتب الدينية كافة، وجعلها أباطيل ملفقة لا تثبت حقًا ولا تنفي باطلًا. وكان أبو العلاء المعري في حيرة.

وكذلك نجد تولستوي رفض فكرة تناسخ الأرواح التي دعاه إليها المهاتما غاندي.

دعا سخط أبي العلاء على ما رأى وقرأ من ظلم الملوك والأمراء إلى التفكير في مصدر السلطة التي أتيحت لهم، فلم ير لها مصدرًا إلا الأمّة التي استأجرت حكامها ليقوموا بمصالحها العامة.

وكره أبو العلاء المعري تقسيم الناس إلى فقراء وأغنياء، وكذلك كان المفكر الروسي تولستوي.

ورأى أبو العلاء أنّ تكريم الميت في دفنه مباشرة بلا طقوس وتقاليد معتادة، وكذلك أوصى تولستوي بدفنه بعد موته مباشرة ودون اهتمام زائد. وبالفعل هكذا دفن تولستوي كما أوصى في قبر متواضع وبدون صلاة على جثته ودون وضع صليب على قبره.

أخذ أبو العلاء من أهل الهند تحريم لحم الحيوان، فلم يتناول لحم الحيوانات والطيور وحرم ذبحها، وكذلك كان تولستوي نباتيًا كما سبق ذكره.

لقد مرض أبو العلاء فوصفوا له الدجاج فامتنع وألحّوا عليه حتى أظهر الرضا فلما قدم إليه لمسه بيده فجزع، وقال: استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الأسد! ثم أبى أن يطعمه. آمن كلٌّ من أبي العلاء وتولستوي بوجود خالق لهذا الكون، ولكنهما انتقدا رجال الدين.

كثيرًا ما نظر إلى أبي العلاء المعري على أنّه فيلسوف، وكذلك فهم تولستوي مع أن كليهما أديبان عالميان. ومن المعروف أنّ المعري استقى الكثير من آرائه من الفلسفة الهندية وكذلك تولستوي.

وكثيرًا ما نجد موازنةً بين ليف تولستوي وبين أبي العلاء المعري في مقدمات ترجمات مؤلفات ليف تولستوي إلى اللغة العربية.

ما سبق ذكره من أوجه شبه بين المعري وتولستوي يؤكد على ما قلناه من تلاقح الحضارات؛ فلا شك أن تولستوي استفاد من الأدب العربي وتأثّر به وهذا لا يعيب تولستوي؛ لأنه أثّر بعد ذلك في لفيف من أدباء العرب مثل:

ليف تولستوي وميخائيل نعيمه

فالكاتب ميخائيل نعيمه* وقع تحت تأثير ليف تولستوي. وتدل على ذلك مسيرة حياته ومؤلفاته. ولقد قرأ ميخائيل نعيمه مؤلفات تولستوي باللغة الروسية عندما كان يدرس في المدرسة الرّوسية الداخلية في الناصرة. وتابع قراءة تولستوي عندما كان يدرس في روسيا. ويكتب في يومياته أنّه أنهى قراءة «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩) ويوافق تولستوي في رأيه عن نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١)، لأنه يكره الحرب وكلّ من يشعلها. ولكنه لا يوافق تولستوي في كلّ شيء يختص بنابليون وكوتوزوف (١٧٤٥-١٨١٣)، القائد الروسي، فنعيمه يرى تناقضًا في آراء تولستوي عن نابليون وعن كوتوزوف.

وكان نابليون يتحرّك ليس بإرادته ولكن بإرادة الظروف والشعوب، في حين أن كوتوزوف الحكيم استطاع أن يحرز النصر على المعتدي نابليون. ويتابع قوله عن تولستوي:

* ولد ميخائيل نعيمه في عام ١٨٨٩ وتعلم في قريته في لبنان في مدرسةٍ روسيةٍ، واسم قريته بسكنتا. افتتحت روسيا آنذاك عدداً من المدارس في كلٍّ من فلسطين ولبنان وسوريا، بهدف نشر الثقافة الروسية في المشرق العربي.

«إنّه ليضحكني أن أراني أناقش مفكرًا عظيمًا من عيار تولستوي، عفوًا يا ليف نيكولايفتش فأنا مدين لك بأفكارٍ كثيرةٍ أنارت ما كان مظلمًا في عالمي الروحي. ففي كثير من منشوراتك الأخيرة التي طالعتها في العالم الماضي قد وجدت نورًا أهتدي به في كلّ خطوةٍ من خطواتي.. أجل. فأنت من هذا القبيل، قد أصبحت معلمي ومرشدي من حيث لا تدري..»

يكتب ميخائيل نعيمه بعد ذلك في مذكراته عن ليف تولستوي: «في الجرائد أخذ وردّ عنيفان لمناسبة بلوغ تولستوي الثمانين من عمره. فاليسارية تطالب الحكومة بالاحتفاء احتفاءً رسميًا بيوبيل الكاتب العظيم، واليمينية تأبى على الحكومة والبلاد أنّ تلقي أيّ بال إلى يوبيل رجل تفسد تعاليمه العقول. وعلى رأس المعارضين الكنيسة التي رشقت بحرمها سيّد ياسنايا بوليانا، والتي حملت وزارة المعارف على إصدار تعميم لجميع المدارس، تحذّر فيه الطلاب من الاحتفاء في أيّ شكل باليوبيل. ياللعار أن يكون في روسيا من يحاول إطفاء هذا المشعل الذي يتألق نوره اليوم في جميع أقطار الأرض.» (٤٩ ص٢١٤) . وفي مكان آخر يكتب: «... ما أفقرك يا بلادي حتى المشاعل العالميّة من طراز تولستوي لم يخترق سواد ليلك بعد...» (٤٩ص٢٣٣) . وبعد ذلك يكتب ميخائيل نعيمة عن ليف تولستوي: «لقد استهواني تولستوي المفتش عن حقيقة نفسه وحقيقة العالم من حواليه.» (٤٩ص٢٧١) .

ويقول عنه: «.. وكانت يده القوية تسندني من حيث أدري ولا يدري. فقد كان لا يعرف شيئًا عني، وأعرف عنه الشيء الكثير. وكنت أتتبع بلهفةٍ صراعه العنيف مع نفسه ومع العالم. فإذا ربح معركةً شعرت كأنّني ربحتها. وإذا خسر معركةً شعرت كأنني الذي خسرها. ذلك الصديق لم يكن غير نمرود (ياسنايا بوليانا) ليف نيكولايفتش تولستوي». (٤٩ص٣٧١) .

وعندما سمع ميخائيل نعيمة بأنّ ليف تولستوي غادر بيته في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٠ ارتاح لهذا الخبر واعتبره انتصارًا في صراع الكاتب الروسي مع نفسه، ويعني تصرّف

تولستوي، بنظر ميخائيل نعيمه، رفض العالم ومجده ومغرياته لكي يربح نفسه، لأنّه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه.

في العشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٠ سمع ميخائيل نعيمة صراخ بائع الجرائد الذي كان يصرخ بأنّ تولستوي توفّي. وعرف نعيمه من الجرائد أنّ تولستوي توفّي في محطة قطار صغيرة. بسبب مرض التهاب الصدر. وهزّ موت ليف تولستوي ميخائيل نعيمه، الذي كان يتتبع خطاه ويحبه إلى درجة العبادة، ويعظم خطوته الأخيرة في أيامه الأخيرة، ومع أنّ خطوته هذه كانت متأخرةً، ولم تحقق هدفها.

ولابدّ من القول إنّ لأفكار تولستوي تأثيرًا كبيرًا على أفكار نعيمه. وهذا واضح في مسرحية «الآباء والبنون» التي ألفها عام ١٩١٧، بطل هذه المسرحية واسمه داود يعلق في غرفته صورة ليف تولستوي وينادي بأفكاره، فهو لا يصلي في الكنيسة ويؤمن بإلهٍ واحدٍ للجميع. هذا الإله ليس مسيحيًا ولا يهوديًّا ولا مسلمًا. يؤمن داود بأنّ قيمة الإنسان بما يقدّمه للآخرين من عملٍ وخدمةٍ وخيرٍ.

كما نرى، مما تقدم فإنّ داود بالفعل يؤمن بالسيّد المسيح وبأفكار تولستوي، ويتصرّف حسب مبادئه، فحياته ذات معنى، يعمل معلّما كما عمل تولستوي، الذي قام بتعليم أولاد الفلاحين في مدرسة ياسنايا بوليانا.

يتطرّق ميخائيل نعيمه في هذه المسرحية إلى موضوعٍ آخر مهم جدًا، أثار اهتمام تولستوي كثيرًا، وهو موضوع الحياة والموت. وفي حالة يأس يقرر الياس وهو صديق داود الانتحار، لأنّه لا يفهم معنى الحياة، فيرى أنّ الحياة بلا معنى. ولكن شهيدة أخت داود تقنعه بأنّ الحياة رائعة وكاملة، فيتخلّى عن فكرة الانتحار، ولكن لا يستطيع الجميع فهم روعة الحياة وكمالها، فالناس المؤمنون وحدهم، يستطيعون رؤية جمال الحياة، وحتى مصائب الحياة هي لصالح الناس في نظر «شهيدة».

إنّ الأسئلة التي أقلقت إلياس، هي نفسها التي أقلقت سابقًا ليفن أحد أبطال رواية «آناكارينينا» والتي أقلقت تولستوي نفسه، الذي تحدث عن هذا الموضوع في «اعترافه» (١٨٨٠) في مسرحية «الآباء والبنون» (١٩١٧) تفكّر أخت إلياس أيضًا بالانتحار، واسمها زينه، وتحضر السم، ويقنعها بالإقلاع عن هذه الفكرة داود الذي يعمل معلّمًا، وأخته معلمة ومفهوم من قبلهما معنى الحياة، الذي يتلخص بأنه يجب أن نعيش من أجل الآخرين (٦٦ص٦٧)، ولذلك لاتخطر على بال داود وأخته «شهيدة» فكرة الانتحار. وأما إلياس وأخته زينة، اللذان يعيشان حياةً فارغةً، يفكّران بالانتحار.

إنّ فكرة معنى الحياة التي تتلخص في العمل من أجل الآخرين وليس من أجل الذات، هذه الفكرة هي من أفكار تولستوي، وسيجري الحديث مفصلًا عنها، ويعبّر ميخائيل نعيمه في مسرحيته، وهي من أعماله الأدبية الأولى عن هذه الأفكار التي استقاها من نبع تولستوي.

إنّ الشخصيات الإيجابية في مؤلفات تولستوي سلبية، بمعنى أنها لاتأخذ إصلاح كل شيء على عاتقها، لإيمانها بوجود خالق وهو يدين الآخرين، مثلها مثل شخصيات روايات دوستيفسكي، وأما الشخصيات الإيجابية في مسرحية نعيمه فإنها تقاوم الشر بكلّ الوسائل. فهؤلاء الأبطال يعملون ويكدحون ويحاربون الأعداء الأشرار، الذين يعيشون حياةً فارغةً، ويدمنون على المشروبات الكحولية، ويقترفون الموبقات، ويلعبون القمار، يتظاهر أحد هؤلاء الفاسدين بالإيمان بالله، ويتردد على الكنيسة، ويتظاهر بعضهم بالغنى الفاحش، في حين كانوا يغرقون في الدَيْن. ومن أجل تحسين أحواله يقرر ناصيف الزواج من زينة، التي تحب داود، ومن أجل الوصول إلى هدفه القذر الوصولي الأناني يتبع أساليب قذرة، منها نشر إشاعة بأنّ داود يعيش مع عشيقة له، وليس مع أخته ويساعده على ذلك والده، وينشر إشاعة بأنّ والد داود يقيم في مشفى الأمراض العقلية. وترغب أم إلياس في أن تتزوج ابنتها من ناصيف

لاعتقادها بأنّ داود بروتستانتي أيّ من طائفةً أخرى غير طائفتها، وترغب بأنّ يكلل الكاهن حنا، ابنتها على ناصيف، حتى بدون موافقة زينه.

كذلك نجد نعيمه أخذ من تولستوي نقطة التضحية في سبيل الآخرين، ونجد الفكرة ذاتها في قصة «القوزاق» (١٨٦٣) . يكتب تولستوي في هذه القصة، أنّ السعادة حاجة فطرية لدى الإنسان ولذلك فتلبيتها أمر ضروري ومشروع، ولكن إذا لبيت بصورةٍ أنانيةٍ، أي في البحث عن الثروة والمجد، فإنّ الظروف يمكن أن تتكوّن بشكلٍ لا يستطيع فيه الإنسان أن يلبي كلّ أمانيه، وهذا يعني أنّ هذه الأماني غير مشروعة. ويمكن تلبية حاجة الإنسان إلى محبة الآخرين والتضحية بالذات من أجلهم، وقد توصل أولينين بطل القصة، في تأملاته عن معنى الحياة إلى الفكرة المذكورة.

نجد في مؤلفات ميخائيل نعيمه مثل هذه الأفكار. ففي قصة «ويذوب الجليد» التي نشرها الكاتب في مجموعة «أبو بطة» (١٩٥٨) يكتب: «مني قشة ومنك قشة ومن الآخر قشة، فأنا لا أستطيع أن أعيش في عالمٍ، يده ونظراته وهواؤه وقلبه من جليد، فمني قشة، ومنك قشة ومن كلّ إنسان قشة، ويذوب الجليد». نرى أنّ الكاتب ينادي في هذه القصة بالتعاون، والمحبة لكي نشعر بدفء العالم.

وتذكرنا هذه القصة بقصة ليف تولستوي «المعّلم والعامل». (١٨٩٥) يشعر المعلّم بدفء من عامله، ويتحسس أنّه يعيش بسببه، فإن عاش العامل، عاش المعلم، وإن مات العامل، مات المعلم. فالمعلم هو العامل، والعكس صحيح. ففي هاتين القصتين نرى أفكار نعيمه وتولستوي عن الروح الأخوية التي يجب أن تخيّم على البشرية.

سياحة
في روائع تولستوي الإبداعية

قبل أن أبدأ في عالم تولستوي الإبداعي أذكر بأن مناهج تولستوي التي كانت تنير أعماله الإبداعية في فترة شبابه كانت معروفة للجميع من قرائه في ذلك الوقت فقد كتب في مقدمة للمؤلف وليست للقارئ يقول: «الإحساس الرئيسي الذي سيقودني خلال هذه الرواية بأكملها هو حب حياة الملاكين القروية، لذا يجب أن تكون اللوحات التي تصوّر العاصمة والمحافظات والقفقاس عامرة بذلك الإحساس الحنين إلى تلك الحياة. ولكن جمال الحياة القروية التي أبغي تصويرها لا يكمن في الهدوء ولا في الجمال الشاعري للريف، بل الهدف المباشر الذي أكرّس له كل مشاعري والمتمثل ببساطة وإشراقة تلك الحياة والفكرة الرئيسة للكتاب هي أن السعادة هي الفضيلة».

عرفنا مسبقًا أثناء الحديث عن حياة تولستوي وطبيعة شخصيته أنه كان مهتمًّا بواقعه المعيش في روسيا القيصرية آنذاك، وأنه كان يسعى سعيًا حثيثًا من أجل تغيير المجتمع وإصلاحه في جميع جوانبه؛ الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية؛ وكي يسعى تولستوي إلى تنفيذ برنامجه الإصلاحي حاول في شبابه أن يضع إطارًا أدبيًا كبيرًا يعبر من خلاله عن المسائل الأساسية في المجتمع والتي تشغل تفكيره من حين لآخر، وأن يعكس من خلال كتاباته أهم مشاكل الواقع الروسي المعاصر في القرن التاسع عشر آنذاك.

وبالفعل بدأ تولستوي الكتابة وكان في كتاباته الإبداعية يعزف على وتر السيرة الذاتية؛ ففي عام ١٨٥٢م كتب الجزء الأول من ثلاثيته التي هي في محتواها ومضمونها سيرة ذاتية لحياته على مراحل مختلفة من حياته وسماها «الطفولة» ونشرها في العدد التاسع من مجلة

المعاصر، ثم أتبعها سنة ١٨٥٤م بالجزء الثاني من الثلاثية وسماه «الصبا»، وجاء الجزء الثالث بعنوان «الشباب».

وبعد ذلك توالت السلسلة الإبداعية لتولستوي، وتوالت كتاباته ومقالاته التي تركت أثرًا واضحًا في المجتمع، وهذا الفصل هو مجرد استعراض لأهم أعمال تولستوي التي تركت أثرًا عند القرّاء لا أقول على الجانب الروسي فقط ولكن أقول على مستوى العالم أجمع، وهي (الحرب والسلام ١٨٦٣م – آنا كارنينا ١٨٧٣م- البعث ١٨٩٩م) وهذه الأعمال أهميتها تنحصر في أنها تركت أثرًا في القراء والنقاد عالميًّا.

الحرب والسلام
(هوميروسية معاصرة)

«**الحرب والسلام**» هي أولى أهم أعمال تولستوي الإبداعية وأكثرها ذيوعًا بين الناس أو عامة القراء لدرجة أنه لا يذكر تولستوي إلا ويقع في الذهن مباشرةً ملحمته الخالدة الحرب والسلام؛ فهي بلا شك مرتبطة مع أعمال أخرى قلائل في عروة وثقى لا انفصام لها داخل الأذهان.

وهاته الرواية في المقام الأول هي رواية تاريخية زري بالتاريخ وتنكر أن التطور التاريخي فيه أي قصد أو معنى، ثم إنها ملحمة تدين الحرب والأعمال الحربية، وتنزع صفة البهاء عن الشجاعة العسكرية والفضائل العسكرية، وتمزق أكاليل العار من على جبين كل الأبطال المزيفين الذين يدعون أن بأيديهم مصير العالم، ثم أخيرًا إنها رواية على شكل دراما وطنية أو عالمية تنتهي عبر محنة الدم والعرق والدموع بالخضوع إلى روتين الحياة اليومية العذب وتتحول إلى نشيد رعوي موضوعه الحياة العائلية.

وقارئ «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩) يلاحظ للوهلة الأولى أنها ذات مواضيع كثيرة ومتعددة الأفكار. من بين الأفكار البسيطة لهذه الرواية أننا يجب أن نعمل الخير ولا يجوز أن نعمل الشر. يحاول الأمير فاسيلي في هذه الرواية أن يسرق وصية الكونت بيزوخوف، التي بموجبها يحصل بيير على ثروةٍ كبيرةٍ وعلى لقب كونت بيزوخوف، ولكن آنّا ميخايلوفنا حالت دون تحقيق نواياه الشريرة. يتخلص بيير من الفخ الأول الذي نصبه له الأمير فاسيلي، لكنه يقع في الثاني، إذ اضطر إلى أن يتزوج من إيلين ابنة الأمير فاسيلي. ولم يكن معها سعيدًا. ولكنّ أفكار الأمير فاسيلي الأنانية لم تعطه الثروة أو الكرامة. وفي سنواته الأخيرة أصبح شيخًا متقدمًا في السن، يستحق الشفقة. ولم يستطع أن يزوّج ابنه أناتولي من

ماريا بولكونسكي، وأصبح أناتولي بعد معركة باردينو مشوّهًا. وماتت إيلين في صباها بسبب حياتها الفاسدة.

ولّدت تصرفات الأمير فاسيلي عند بيير فكرةً تشاؤميةً ولعلها أكثر أفكار الرواية تشاؤمًا، فلقد سمع بيير قصةً عن الجنود الذين كانوا أثناء الحرب في الخندق وتحت القصف، والذين اختلقوا وسائل كثيرة للتسلية، لكي يتحملوا الحرب بصورةٍ أسهل، ولكي يتناسوا الخطر المحدق بهم، ورأى بيير أن الناس كلهم يشبهون هؤلاء الجنود الذين يحتمون من الحياة ويتناسونها ويتجاهلونها، بعضهم بحبّهم للشرف، وبعضهم بانشغالهم بالسياسة، وبعضهم بهواية الصيد، وبعضهم بالإدمان على المشروبات الكحولية. «لايوجد عمل هام وآخر وضيع، كلّ الأعمال متساوية الأهمية، فقط المهم أن أحتمي منها كما أستطيع! -فكّر بيير- فقط المهم ألا ألاحظها، هذه المخيفة» (٩٧ ص٢٩٧) . ويقصد بكلمة المخيفة أن الحياة مخيفة. إنّ تأملات بيير حول الحياة تشبه تأملات تولستوي نفسه. يكفي أن نتذكّر ما كتبه تولستوي في اعترافه (١٨٨٠) بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا حين تسكره الحياة وتغشي بصيرته، أمّا حين يكون في صحوه، فيستحيل عليه إلا أن يرى أنّها زيف محض، زيف غبيّ! فالحق أنّ ليس فيها شيء مسلّ أو ذكيّ، إنّها غبية، بكل بساطة قاسية.

ويكتب تولستوي الأسطورة الشرقية التي تتحدّث عن مسافر اعترضه في الوعر الفسيح وحشٌ مفترس، فاضطر للهرب منه والقفز في بئرٍ جافةٍ، لكنه رأى من بعيد في قاع البئر تنينًا، قد فتح فكيه لافتراسه، فتمسّك بغصن شجرةٍ، لكنه رأى جرذين أبيض وأسود، يدوران حول الغصن، ويقضمانه. فعرف أنّه لا محالة هالك.

حالة بيير بيزوخوف غير طبيعية. فهو غني ومتعلم وذو صحةٍ جيدةٍ، ولكنه لا يعرفُ السعادة ويثير السخرية لأنّ زوجته خائنة، ولاتحبه، كلّ فلاح من فلاحيه سعيد أكثر منه.

وحصل بيير على السعادة في نهاية المطاف، فتزوج من ناتاشا روستوفا. فاستحق بيير السعادة لقلبه الذهبي. فإذا كان زواج بيير من إيلين قد أدّى به إلى التشاؤم فإنّ زواجه من ناتاشا روستوفا أنقذه منه وخلصه من الأفكار السوداوية.

أمّا دولوخوف -أحد أبطال الرواية، الذي أصبح عشيقًا لإيلين زوجة بيير «فلعب في حياة بيير الدور نفسه، الذي لعبه أناتول في حياة أندريه بولكونسكي...» (٨٦ص٧٦) وعندما يقع بيير في الأسر، وتظهر جانبه ناتاشا روستوفا، وآنذاك كان المخلّص هو أفلاطون كاراتايوف، الذي ترك انطباعًا كبيرًا على بيير ليس بكلماته وإنما بتصرّفاته. وتم لقاء بيير بأفلاطون كاراتايوف عندما تحطّم إيمان بيير بعدالة النظام الذي يسود العالم، وبالله، وتغلغلت أفكار أفلاطون كاراتايوف إلى أعماق قلب بيير ليس كنظريةٍ، كمنظومةٍ فكريةٍ، وإنّما كإحساس بالحياة المحيطة المفقودة المعقولة. أحب أفلاطون كاراتايوف الجميع وعاش الحبّ، وبقوة هذا الحب كان أفلاطون كاراتايوف يحس أنه جزء لا يتجزّأ من العالم كلّه. كاراتايوف ابن الطبيعة العظيم. وعندما يموت فإنّما يرجع إلى حضن الطبيعة.

وقد قصد تولستوي من خلال عمله أن يسرد الحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية، لروسيا في بداية القرن التاسع عشر، زمن الحرب النابوليونية، وبالتحديد من ١٨٠٥ حتى ١٨٢٠ وهي كما نعلم لحظة مفصلية في التاريخ الروسي، وكذا في التاريخ الثقافي والسياسي لأوربا.

وحين عرّفت الرواية بأنها «هوميروسية معاصرة»، لم يكن هذا من عندي بل هو وصف صاحب الرواية في المقام الأول؛ فقد عرف تولستوي تحفته الحرب والسلام بأنها «هوميروسية» وذلك لغلبة الطابع الملحمي عليها، وكثير من النقاد يميلون إلى توكيد الصفة الملحمية، وهم بهذا يجدون في حجيتهم بمقولة تولستوي السابقة سندًا لهم، وبعد أن نعترف

بتلاؤم هذا النعت على هذه الرواية الكبرى فإن علينا أن نرفض الدعوى الأخرى لمؤلّفها حين قال إن الحرب والسلام إلياذة جديدة. إنها بالأحرى أوديسة جديدة مشابهة للقصيدة الهوميروسية الثانية هذه في الثيمة والنبرة ومعيدة لحكاية القصة نفسها وهي العودة المتأخرة السعيدة للمحارب الذي يرجع إلى أرضه ومزرعته وبيته.

إن لحظة الحرب في المنظور الفكري لتولستوي مختبر فريد لنفسية الأفراد والشعوب، لذا فرواية «الحرب والسلام» ليست مجرد نصّ، بل موسوعة مسهبة موغلة في استنطاق الوعي والتاريخ، موسوعة من أربع مجلّدات ضخام تصل بحجمها إلى حوالي ستة آلاف صفحة.

إن رواية الحرب والسلام بفعل انتشارها فوق مساحة شاسعة من التجربة البشرية فهي تهب للقارئ انطباعة بأنها صورة هائلة الحجم متعددة اللوحات ومع هذا فإننا إذا نظرنا قريبًا منها فإننا سوف نرى في الحقيقة أننا نتعامل مع سلسلة لا تكاد تنتهي من اللوحات المزدوجة؛ فالبنيان الحكائي للرواية مبني على التناوب بين الأحداث والمشاهد التي تتقابل أحدها مع الآخر في كلٍ من مجالي الموضوع والمزاج النفسي؛ حيث أشار غالبية النقاد إلى أن الحكايات الحربية فيها تتناوب مع المشاهد السلمية.

لكن ماذا أراد تولستوي بنصّه هذا؟ هل أراده نصًّا روائيًّا، ثم خلال صيرورة كتابته انساق نحو مطلب التأريخ لروسيا زمن نابوليون؟

حتى لو أراد تولوستوي أن يكون مؤرّخًا لن يستطيع، فموهبته الخلّاقة كروائي، وقدرته الهائلة على التخيل لم تكن إلا لتحوّل المادة التاريخية تحويلًا فنيًّا يخرجها من نمط القول التاريخي إلى نمط القول الفني، بما يستبطنه من تخيّل وبناء للشخوص وإيغال في حكي أدق ما يحتمل بداخلها من مشاعر وأفكار، وكذلك كان، فـ«الحرب والسلام» تاريخ لحظة وشعب، لكن تولوستوي أراد أن يبعث فيه دفق الحياة، فنراه تاريخًا يمشي على قدمين، ويتحرّك في

سياق صيرورته آخذًا معه جموعًا بشريّة حرص تولوستوي على استبطان داخلها النفسي، فجعلنا نحسّ بها ومعها، ونتوقع أحيانًا حتى ردود أفعالها وأسلوب تفكيرها، ونتيجة لهذا التعدد في الشخوص والمستويات السردية يصعب تحديد بطل روايته هذه، فهي كما قلنا سابقًا لا تشابه النظام الروائي التقليدي الذي كان سائدا وقتئذ، الذي يتمحور حول شخصية أو شخصيتين مركزيتين، بل كان النص تاريخ لحظة وشعب بكل ما تفيده ماهية التاريخ من صيرورة وامتداد وتفاعل، واحتمال لعدد هائل من الآحاد والأفراد. إذ تبلغ شخصيات هذا المتن الروائي الفريد أزيد من ست مائة شخصية.

لكن المضمون المحوري في رائعته هذه ليس تسجيل وقائع تاريخية ممزوجة بأخرى من محض مخيلته الخلاقة، إنما فضلًا عن إنجازه لنصّ فني ما زال يعد أشهر نموذج للرواية التاريخية، فإن تولستوي حرص على تضمين متنه جملة رؤاه ومواقفه الفكرية، حيث نجد نقدًا صريحًا لظاهرة الحرب في التاريخ الإنساني، من خلال بيان فظاعاتها ووحشيّتها لا إنسانيتها، بل عدّها منافية للعقل ذاته، هذا الذي تزعم البشرية أنها تمتاز به، لكنها لا تمتثل له، فليس ثمة مبرر حسب تولوستوي للحرب سوى أن تكون حربًا دفاعية فقط، لذا ينادي إلى قيم السلم ونبذ العنف، منتقدًا بشدة شخصية نابليون وأمثاله من القادة الدمويين، مؤكدًا أن الأبطال الحقيقيين في تاريخ البشرية هم الذين قادوا شعوبهم وارتقوا بها نحو الامتثال لقيم السلم، وفي هذا السياق يحرص تولستوي في روايته هذه على استحضار شخصية النبي محمد ﷺ، وتقريظه بوصفه أحد أعظم الشخصيات المدافعة عن السلام.

وفي الأقسام المعالجة للسلم في الرواية نرى تولستوي يعرض الحياة في المدينة؛ لكن عرضه يتغير بدوره على نفس الأسلوب لكي يخلي مكانه لاستثارة الأبسط وهي حياة الريف. وحتى حياة المدينة نفسها توصف في مشاهد متوازية تقابل تقابلًا متضادًا بين أخلاقيات مدينة

سانت بطرسبورغ وهي بلاطية وبيروقراطية وأوربية في طبيعتها وبين أخلاقيات مدينة موسكو العتيقة الطراز الأبوية والروسية كل الروسية في روحيتها.

وفي رواية الحرب والسلام استطاع تولستوي كفنان واقعي أن يفتح تيار الحياة الجبار والمعقد إلى ما لا نهاية منفذًا إلى أعماله ويمكن من التوصل إلى الانطباع الحقيقي الكامل للحياة. إضافة إلى أنه استطاع أن يسبغ على المادة الفنية التي تناوله رشاقة داخلية غير اعتيادية في مؤلّفاته الأدبية. في أعمال تولستوي دائمًا ما توجد فكرة مركزيّة غالبًا ما يصوغها بنفسه.

يقول تولستوي في رسالة وجهها إلى ن.ن. ستراخوف في ٢٣ نيسان ١٨٧٦م: «لو أردت أن أتحدث بالكلمات عن كل ما قصدته أو ما قصدت التعبير عنه في الرواية لتوجب علي كتابة نفس الرواية التي كتبتها أولًا» ثم يواصل شرحه قائلًا:

«تفقد كل فكرة مطروحة بالكلمات معناها وتهبط بفظاعة خصوصًا عندما تؤخذ لوحدها بعيدًا عن ذلك الترابط الذي وُجِدت فيه مع غيرها، أعتقد أن التماسك ذاته لا تصنعه الفكرة بل شيء آخر ولا يمكن شرح أساس هذا التماسك بدون كلمات، بل يمكن شرحه فقط بواسطة الكلمات التي تصور الأشخاص والأحداث والأوضاع».

وفي نهاية الحرب والسلام نجد صراعًا قاسيًا في نزاع مكشوف بين إنسانية الشعب الروسي ولا إنسانية نابليون، ونلاحظ انهزام نابليون في نهاية الرواية كحامل للواء الشر؛ لكنه غير قادرٍ على التبدل، وليس باستطاعته التخلي عن وهم الحياة. والنابليونية لا تتجسد في الرواية على أنها مجموعة أفكار، بل كمبدأ ثابت مستقر ونفسيّات مستقرة وآراء الأبطال وبعض المجموعات الاجتماعية.

آنا كارنينا
(نماذج بشرية مرضى بداء الطبقية)

آنا كارنينا رائعة تولستوي تتحدث عن أسرٍ ثلاثٍ، يخون الزوج في الأسرة الأولى زوجته ولذلك لاتوجد سعادة زوجية. وفي الأسرة الثانية تخون الزوجة زوجها ولذلك لاتعرف هذه الأسرة السعادة، ويسود الانسجام الأسرة الثالثة لوجود الإخلاص.

ونتعرف في الرواية كذلك على شخصية «آنا» الزوجة التي حكم عليها بعلاقة عاطفية أبعدتها عن ابنها الوحيد... ورمت بها في زوايا مجتمع حُكم عليها بالازدراء والمهانة، فلم تستطع آنّا كارنينا فهم قوانين الحياة الواضحة والمستقيمة مثل سكة الحديد، وقوانين الحياة رحيمة لمن يحافظ عليها ويصونها، وقاسية على الذين لا يصونونها.

قضت آنا كارينينا على حياتها وعلى حياة ابنها وابنتها، وعلى حياة زوجها كارينين، وبعد انتحارها التحق فرونسكي بالقطعات العسكرية المشاركة في الحرب متطوعًا، وكأنّه يقدم على الانتحار، وترك والدته تعاني الآلام والشقاء. أي أنّ موت آنا كارينينا سبّب الآلام والأوجاع لكلّ الناس المحيطين بها، على قدر علاقتهم بها، وعلى قدر تسببهم في موتها. لأنّه لا توجد في الحياة تصرّفات منعزلة. كلّ الأمور في الحياة متشابكة ومترابطة ولها علاقة بعضها بالآخر ولذلك فإن الجميع مسؤولون عن خطيئة آنا كارينينا مثلما هي مسؤولة عن خطاياهم. ففي الحياة توجد علاقات سببية. فكل عملٍ هو نتيجة للأعمال التي سبقته وسبب للأعمال التي تليه. كانت علاقة كارينين بأسرته مثلما هو بوظيفته. وهذا أحد أسباب مأساة أسرته. لأنّ العقل والأخلاق ضروريان في الحياة الأسرية، ولكنهما لا يكفيان فلابدّ من القلب والحب.

وروعة آنا كارنينا ليست من طبيعة الحكاية فهناك المئات من هذه القصص ولكن روعتها تنبع من براعة تولوستوي في التداخل مع الحدث في جريانه... فأحداث الرواية ساحة تتحرك في رحابها طبقة من النبلاء الروس الذين ودّعوا نظام القنانة وانتقلوا من الإقطاع القديم إلى ارستقراطية جديدة.

تطفوا على سطح أحداث آنا كارنينا نماذج بشرية متنوعة معظمها مريض بمرض الطبقية، مرض النبل، مرض الإرث الثقيل، والنماذج البشرية هذه هي غالبًا نماذج مهتزة غير سوية، تتفاعل في داخلها صراعات كثيرة، أبرزها ما بين القلب والعقل أو بين الحب والواجب، وما بين القديم والجديد، وما بين العبودية والعدالة والمساواة. وبعد كل ذلك آنا كارنينا هي عصارة جهد تولستوي وفيها الكثير من نفسه، ومن آرائه، وتجاربه الشخصية التي يجسدها غالبًا البطل الريفي ليفين، ويجسد بعضها الكسيس كارنين، وهي إلى جانب ذلك لوحة تصوّر المجتمع الروسي في أدق مرحلة من مراحل تاريخية.

والأسس التي بنى عليها تولستوي رواية آنا كارنينا هي نفس الأسس التي بنا عليها رائعته الحرب والسلام؛ حتى في آنا كارنينا يندمج التقابل الجوهري مع التوازي والتقابلات الأصغر منه؛ مثل التقابل بين المدينة والريف، والعاصمة القديمة والجديدة، وتفاهات حياة علية القوم وما يقابلها من صور أخرى تبيّن مجهودات الفلاحين والعاملين البسطاء في الحقول. وقارئ آنا كارنينا يلاحظ فيها وجود درامتين: الأولى دراما عامة، بينما الثانية خاصة، ومن الناحية الاجتماعية فإن آنا كارنينا هي مأساة من مآسي الأدب الاجتماعي، أو على حد تعبير دستويفسكي؛ (إنها مأساة من مآسي غرف الجلوس أو الصالونات). أو هي مأساة غرفة نوم؛ ولكن بسبب المعالجة المتحفّظة والعرض غير المباشر بالدرجة الأولى استطاع

تولستوي أن يبيّن لنا أن موهبته تتكوّن من اندماجٍ فريد بين الذكاء الأدبي والاستبصار الأخلاقي. ومن الواضح أن تولستوي عكس دراما آنا كارنينا عبر منظورين مزدوجين مؤسسين على اللا معقول الرفيع الكامن في الوصية المسيحية الآمرة بأن المرء يجب عليه أن يحب الإنسان الخاطئ ويكره الخطيئة.

وقد أراد تولستوي من قارئ هاته الرواية أن يكون رحيمًا لا عديم الرحمة كما كان المجتمع الذي عاقب آنا كارنينا لا على خطيئتها، بل على اعترافها بهواها وحبّها أمام العالم. كما أراد تولستوي من القارئ أن يكون قاسيًا أيضًا؛ وعليه فإن آنا ينبغي أن تكون موضع شفقة، ولكن لا ينبغي أن تغفر لها خطيئتها. إلا إنه مهما يكن الأمر فقد أدرك تولستوي أن من أجل الوصول إلى هذا التوازن الأخلاقي الأمثل فيجب عليه أن يمر مرورًا صامتًا على اللحظة المصيرية القتالة وذلك عندما استسلمت آنا كارنينا استسلامًا تامًا ونهائيًا لإغواء الخطيئة.

البعث

ورواية «البعث» هي من أعمال الشيخوخة التي كتبها تولستوي في كبره كي يكمل بها الحلقة الأخيرة من ثلاثيته الشهيرة (الطفولة – الصبا – الشباب). وقد استمد تولستوي أحداث الرواية من موقف حدث له في شبابه حينما كان يقيم مع عمته تحت وصايتها؛ فقد أحب خادمة كانت تعمل عند عمته؛ لكن لم يكتب لحبه الاكتمال؛ لأن عمته طردت الخادمة ونهرتها حين علمت بما بينها وبين تولستوي من مشاعر؛ فلا يقبل في المجتمع الطبقي أن يحب رجل من طبقة النبلاء خادمة تعمل عنده.

فاستمد تولستوي أحداث روايته من هذا الموقف؛ حيث خلق شخصية الأمير نيخوليودوف الذي كان عليه أن يجلس بين المحكمين كي يصدر الحكم على خادمة كانت تعمل عند عمته بعد أن أغواها وأصبحت حاملًا منه. ويستمر قارئ الرواية حتى النهاية فلا يستطيع أن يعرف مصير نيخوليودوف، وما الذي حدث له؛ فإنه من المستحيل تخيله متحوّلًا إلى قديس أو حتى عثوره على عمل يشبع لديه جوعه للعدالة.

وبالرغم من ذلك فإن رواية البعث وإن كانت تنتهي في الهواء لجديرة بالانتساب إلى الروايات التي سبقتها من حيث الجدة والروعة. فهي الرواية أو العمل الذي توصّل تولستوي نحو المشكلات التي عاشها في حياته؛ بل هي الرواية الوحيدة التي تعالج معالجة حقيقية مآسي المجتمع الطبقي كما رآها هو رؤية شخصية مباشرة.

وقد ترجمها إلى العربية سليم قبعين وأشار إلى أنّه ترجم الرواية من اللغة الإنكليزية. ويعتبرها رواية «اجتماعية وأدبية»، ويرى أنها مفيدة للشباب والفتيات؛ لأن تولستوي يصف فيها كبرياء المجتمع البورجوازي ويفضح عيوبه ويمزّق الأقنعة عن وجوه الأغنياء فيبيّن حقيقتهم ويحارب السلبيات ويدافع عن الخير بلغة بسيطة سلسة. فهي رواية جذّابة حتى الكلمة الأخيرة. هكذا يصف رشيد حداد الرواية في المقدمة التي كتبها للترجمة العربية. ولكن رشيد حداد لم يعرف أو لم يرغب في معرفة هدف تولستوي من نقده للنظام الاجتماعي

القائم. إن رواية تولستوي تهدف لتكريس التعليم الإنجيلي، في حين أن الرواية في نظر المترجم، ليست أكثر من رواية اجتماعية، ولذلك يتجاهل نهائيًا النقد اللاذع للكنيسة، الذي يقوم به تولستوي في روايته الخالدة. ويمرّ المترجم، مرور الكرام، على علاقة الكاهن بالمؤمنين. كما أن المترجم لم ينقل إلى اللغة العربية التصدير الذي يلقي ضوءًا على مضمون الرواية، والذي أخذه تولستوي من الإنجيل والذي يدعو إلى العفة.

حافظ المترجم بلا حذف أو تغيير على التغيير الروحي الذي طرأ على كاتيوشا ماسلوفا، كما يصف البعث الروحي الذي طرأ على نيخليودوف. ويحافظ المترجم على شخصيات الثوريين، ويلاحظ أنّ المترجم يصور الثوريين بتعاطف أكثر مما يصورهم تولستوي قليلًا، كما يهتم المترجم، بالدرجة الأولى، بتصوير مصير أبطال الرواية أكثر من أي أمر آخر، واهتم أيضًا بالعيوب الاجتماعية، أكثر من اهتمامه بالتعاليم المسيحية، جذبت اهتمام المترجم بعض اللحظات في الرواية، وبالدقة، حيث يبيّن تولستوي زيف وعيوب المجتمع المعاصر. ففي الفصل الثالث عشر من الجزء الأول من الرواية يتحدث تولستوي عن التأثير المفسد للخدمة الإلزامية في الجيش على الناس البسطاء وغير البسطاء، يحذف المترجم هذا المقطع، وكذلك يحذف المترجم تصوير تولستوي للقضاء وللمحكمة تصويرًا كوميديًا وفضحه للقضاء البورجوازي، وكأن المترجم لا يجرؤ على ترجمة الرواية بدقة معتبرًا نقد تولستوي للمحكمة نقدًا حادًا ولاذعًا. وبذلك يختفي من النص العربي تصوير تولستوي لرجال القضاء. (الجزء الأول، الفصل السابع) .كما يحذف قسمًا كبيرًا من الجزء الأول، الفصل الثالث والعشرين حيث يجري الحديث عن أن الحكم ضد كاتيوشا ماسلوفا كان لا يستند على القوانين بقدر استناده على المصادفة فمثلًا ألقى رئيس المحكمة خطبته المطوّلة ولكنه أهمل أن ينبّه المحلفين إلى أنّ الإجابة حول كاتيوشا ماسلوفا يمكن صياغتها بـ «نعم، ولكن دون قصد»، فحكم على ماسلوفا بالأعمال الشاقة مدة أربع سنوات. وكان لديها إحساس بالظلم، فأخذت تبكي وتصيح إنها بريئة، وكان وضعها مثل وضع العصفور الجريح، الذي يتخبط في

جعبة الصياد، وكان وكيل النيابة، كما يصفه تولستوي، غبيًّا، أمّا رئيس محكمة الجنايات كما يصفه تولستوي في روايته المذكورة فمتزوّج، يعيش حياة ماجنة وتفعل امرأته مثله، وكان مبدؤهما ألا يضايق أحدهما الآخر. تلقّى بطاقة من مربية سويسرية عملت قديمًا في بيته، وهي تمرّ الآن في المدينة قاصدة إلى بطرسبورج، اسمها «كلارا» ولذلك أراد أن يبدأ وينهي الجلسة بأسرع مايمكن لكي يلقى «كلارا» في الساعة السادسة لأنّها أعجبته عندما بدأ معها مغامراته في الصيف الماضي.

أما الكاهن، الذي أدى أمامه المحلفون القسم، فلقد أمضى في خدمة الكهنوت سبعًا وأربعين سنة، جنى خلالها ما لا يقل عن ثلاثين ألف روبل، وبنى منزلًا.

تعرضت للتغيير الأمكنة كلها التي لها علاقة بالدين وهي بوجه خاص في الفصل السابع من الجزء الأول، ويحذف رشيد حداد المقطع الذي يتحدّث فيه الكاتب عن طقس الاعتراف وتناول الجسد. كما أن المترجم يغير كل الأمكنة التي تتعرض للدين ولرجال الدين، يحذف المترجم الفصل ٢٣ من الجزء الثاني حيث يعرض المؤلف تأملات «سيلينين» وبذلك تذوب قوة استنكار تولستوي لنقد الكنيسة. ويحذف المترجم بعض الفصول حيث يصوّر المؤلف حياة كاتيوشا ماسلوفا في بيت الدعارة.

يضيف المترجم أن التربية ضرورية للفتيات من أجل مستقبلهن علمًا بأن تولستوي لا يكتب ذلك في روايته «البعث».

قد تكون هذه التغييرات موجودة في النص الإنكليزي فالمترجم رشيد حداد لا يشير بدقة إلى المصدر الذي ترجم عنه رواية «البعث» وقد تكون الرقابة في مصر قامت بحذف الأمكنة المحذوفة في النص العربي. ولابأس في الإشارة إلى أن رواية البعث بترجمة رشيد حداد محفوظة في متحف تولستوي في قريته يا سنايا بوليانا.

تولستوي مفكرًا وفيلسوفًا :

«كن طيبًا .. وحاول ألا يعرف أحدٌ أنك طيب ..!!»

ليو تولستوي

تولستوي
وفلسفة الحياة

«إن ليف كائن غريب غير مفهوم في تفكيره وطبعه... لقد احتلت دراسة اللغات الفكرية التي بدأها في قازان تفكيره لعدد من السنوات غير أنه بعد ذلك ملأت دراسة الفلسفة كامل وقته، ليل نهار. إنه يفكّر فقط كيف يمكن أن يتعمّق فقط في سرّ وجود الإنسان ولا يشعر بنفسه سعيدًا إلا في تلك اللحظات التي يجد فيها إنسانًا يستمع إليه وإلى أفكاره التي يطورها بحماسة فائقة»*

آثرتُ أن أبدأ حديثي عن فلسفة تولستوي وفكره بهاته الكلمات التي كتبتها (ت.آ.يرفولسكايا) في مذكراتها؛ لأنها تعبر أشد تعبير عن انتقال تولستوي بين مرحلتين في حياته الفكرية ألا وهي انتقاله من دارسة اللغات الشرقية إلى دراسة الفلسفة التي تعمّق فيها حتى النخاع.

وقد حمله ولعه بالفلسفة إلى قراره أن يعيش في نمط حياة ثابتة وكما تذكّر تولستوي نفسه فيما بعد مبتسمًا «**لقد طمحتُ أن أعيش نمط حياة ديوجين**» فقد فصل وخاط لنفسه قبازًا من قماش الأشرعة فكان له بمثابة الثوب والغطاء في الوقت نفسه. وكان يلبس الحذاء بدون جوارب ومهما بدا ذلك غريبًا فإن تلك «السماحة» قدمت لتولستوي خدمة كبيرة في التعرف على مشكلات مجتمعه «عندما كنت في السابعة عشر من عمري عندئذ فقط عزمت بأن الفلاحين الأقنان **يحتقرون ويكرهون السادة**».

* صفحات مجهولة من حياة تولستوي

معنى الحياة عند تولستوي

■ «لماذا أعيش وأعمل وأرغب؟» فقد كان السؤال الذي يؤرّقه باستمرار:

- ما الهدف من حياة الإنسان؟!

- ماذا سيصير بما أعمله اليوم وما أعلمه الغد؟ وما الذي تصير إليه حياتي كلّها ؟

أو بعبارة أخرى:

- لماذا يجب أن أعيش في هذا العام؟ ولماذا يجب أن تكون لي رغبات ؟ ولماذا يجب أن أعمل لنفسي عملًا؟

- هل لحياتي من معنى يعجز عن القضاء عليه الموت الذي ينتظرني بفارغ الصبر؟

ظلت هاته الأسئلة تؤرق ذهن تولستوي؛ فكان يطرحها أمام عقله أينما توجه، وأخذ يبحث عن إجابة له في جميع جوانب المعرفة البشرية.

وطفق يبحث في طباع البشر؛ فوجد أن كل شيء في الكون ينمو ويتطوّر ويسعى إلى تحقيق غاية كلية، قد لا تدركها العقول إلا بعد حين، واستنتج بعد بحثٍ طويل أن الهدف من الحياة هو «**العمل الدؤوب؛ لتوفير كل المؤهلات التي تتيح لهذا التطور الشامل أن يُحقّق غايته**».

وأيقن أن ذلك لا يمكن أن يتم إلّا بالجدّية المطلقة والنظام الصارم؛ حيث قال في رسالة إلى أحد أصدقائه: «**على المرء إذا أراد أن يعيش بشرفٍ وكرامة أن يتمتع بقوّة، وأن يُصارع كل المثبّطات، فإذا أخطأ بدأ من جديد، وكلّما خسر عاود الكفاح من جديد، موقِنًا أن الخلود إلى الراحة إنما هو دناءة روحية وسقوط**».

وكان تولستوي يكبتُ نفسه بشدّة إذا أحسّ منها تهاونًا أو تراجعًا. قال في مذكّراته، وهو في العشرين من عمره:

«لم أفعل شيئًا، كم يعذّبني ويرعبني إدراكي كسلي. إن الحياة مع الندم محض عذاب، سأقتل نفسي إذا مرّت عليّ ثلاثة أيام أخرى من دون أن أقوم بفعل شيء ينفع الناس».

وكبر تولستوي وكبرت معه آلامه؛ فقد انتقلت إليه ملكية أراض شاسعة وفيرة الإنتاج، وكان ينظر إلى الفلاحين يكدحون في أرضه؛ كي يزداد هو ثراءً، أما هم فلا ينالون إلا ما يسد الرمق ويبقيهم أرقاء.

وكان تولستوي ينظر إلى المرأة الريفية (تولد وتموت من دون أن ترى شيئًا أو تسمع شيئًا).

وشيئًا.. فشيئًا راح تولستوي ينسحب من حياة أسرته، وحياة أمثاله من ذوي الثراء. ولِمَ لا يفعل وهو يرى في كل يوم، عندما يخرج من بيته جمهرةً من المتسوّلين بملابسهم الرّثّة، يمدّون إليه أيديهم، فلا يُبالي بهم؛ بل يمتطي صهوة جواده، وينطلق بسرعة شديدة كأنه لم يرَ شيئًا.

وتختلج في نفسه مشاعر النقد للذات؛ فيخاطب نفسه إن أي فلاح بسيط من العبيد الذين يعملون في أرضك يستطيع أن يصرخ في وجهك. ويقول لك: «إنك تقول شيئًا وتصنع نقيضه. فكيف تطيق ذلك؟».

وشرع تولستوي ينشر مقالاته داعيًا إلى المساواة بين الناس، وبلغ عدد ما كتب عشرة آلاف رسالة، حتى لُقّب بـ «محامي مائة مليون من الفلاحين الروس»، وسمّاه الأميركيون: «المواطن العالمي».

- لكن ما موقف زوجته صوفيا من ذلك الفعل؟!

لقد امتلأت زوجته «صوفيا» رعبًا؛ خوفًا على تولستوي من أن تجرفه أفكاره المثالية بعيدًا؛ فيوزع ممتلكاته على العاملين فيها؛ فقالت له مهددة: «**يبدو أن حياتنا تسير إلى قطيعة مؤكدة. ليكن.. فأنا وأنت على تنافر دائم منذ التقينا... أتريد أن تقتلني وتقتل أولادك بمقالاتك هذه؟!! لن أسمح لك بذلك**».

وفي الحقيقة.. لم يكن تولستوي راغبًا في أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

فلسفة الأخلاق

يمكن أن نجد هذه الأفكار في رواية «آنا كارينينا» (١٨٧٣-١٨٧٧). تبتدئ الرواية بالتصدير: لي النقمة، وسأجازي، قال الرب. ويعتبر هذا التصدير مفتاحًا لفهم الرواية. لا يحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان. يحاكمنا جميعًا الخالق. من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره. ليس لأنّ نظام المجتمع غير طبيعي وغير عادل فحسب، وإنما في أيّ نظامٍ اجتماعي لا يجوز إدانة بعضهم بعضًا، لأن «قوانين الروح الإنسانية مجهولة لا يعرفها العلم، وغير محددة، ومحاطة بالأسرار، ولذلك لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد حكماء ولا قضاة، وإنما يوجد من يقول: لي النقمة وسأجازي». كتب فيدور دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) عن رواية «آنا كارينينا» في يوميات كاتب في عام ١٨٧٧. وفسّر ليف تولستوي نفسه اختياره للتصدير: (١٣١ المجلد الحادي عشر ص٢١٠) «ليؤكد فكرة أنّ الشر الذي يقوم به الإنسان، يترك نتائجه وهي الآلام التي تقع على الإنسان، ليس من المجتمع ولا من الناس، وإنّما من الله. وهذا ما حدث مع آنّا كارينينا (١٥٣-٤٩٨).

تتضّمن فلسفة ميخائيل نعيمه وليف تولستوي الأخلاقية فكرة عدم إدانة الناس بعضهم بعضًا، وبالعكس يجب على الناس مساعدة بعضهم بعضًا، ويجب على الإنسان أن يرغب الخير للآخرين مثلما يرغبه لنفسه.

لقد آمن وليف تولستوي بوصية «لا تزن» لأنّ احترام هذه الوصية يعني احترام الأسرة، التي يشكل الإخلاص حجر الزاوية في بنائها، وإذا خالف الإنسان هذه الوصية فإنما يسيء لنفسه وللآخرين.

كتب ليف تولستوي مؤلفاتٍ نقديةً وإبداعيةً كثيرةً في هذا الموضوع. ورأى ضرورة الحفاظ على العفة قبل الزواج وأثنائه. والهدف من الزواج برأيه إنجاب الأطفال الذين يخدمون الله والناس في المستقبل.

تزوجت بطلة قصة «السعادة الأسرية» (١٨٥٩) رجلًا أكبر منها كثيرًا. عدد سنوات عمره ضعف عدد سنوات عمرها. وعندما كانت في بلدٍ أجنبي، كادت أن تخون زوجها مع إيطالي اسمه ماركيز، لكنها لم تقدم على الخيانة، وبذلك أنقذت أسرتها، وأنقذت حياة الناس الآخرين، الذين ارتبطت حياتها بحياتهم.

تذكّرنا قصة «السعادة الأسرية» (١٨٥٩) بأمور كثيرة برواية «آنّا كارينينا» (١٨٧٧)، التي صدرت بعد مرور ما يقارب العشرين عامًا على صدور قصة «السعادة الأسرية» فلقد تزوجت آنّا كارينينا إنسانًا أكبر منها سنًا بكثير، كما هي الحال في قصة «السعادة الأسرية» وكان عند بطلة القصة طفل واحد مثلما عند بطلة «آنّا كارينينا» طفل واحد، عندما تعرّضت كلّ منهما لتجربة الخيانة الزوجية.

في قصة «السعادة الأسرية» لم تحدث الخيانة، ولذلك سارت الحياة مسارها الطبيعي. وهذه الحالة الأولى من حالات الحياة الأسرية. وأما الحالة الثانية فهي فيما لو أقدمت بطلة قصة «السعادة الأسرية» على الخيانة الزوجية. ماذا كان سيحدث؟ ونجد الإجابة عن هذا السؤال في رواية «آنّا كارينينا».

في قصة «موت إيفان إيليتش» (١٨٨٦) نرى أنّ إيفان يشبه كارينين: «وكان يطلب من الحياة الأسرية فقط وسائل الراحة مثل الفراش والخدمة والحفاظ على الأخلاق العامة أمام المجتمع للحصول على احترام الآخرين» (١٠٢ص٧٤-٧٥)

ونتيجة لنظرتي إيفان وكارينين إلى الحياة الأسرية الخاطئتين، لم يتوصلا إلى السعادة الأسرية، فلكي تتخلص آنّا كارينينا من خشونة معاملة كارينين لها، التجأت إلى الضابط فرونسكي، الأمر الذي انتهى بانتحارها، لأنّ آنّا ابتعدت عن خطيئة زوجها، فارتكبت خطيئةً، عقوبتها الموت.

يقتل بوزنيشوف زوجته في قصة «لحن كريتسر» (١٨٨٩) ومصدر شقاء هذه الأسرة أنّ بوزنيشوف لم يكن عفيفًا في حياته قبل الزواج، ولكنه لم يتوقع أبدًا أنّه سيدفع ثمنًا باهظًا بعد الزواج، وأنّ سلوكياته قبل الزواج ستترك آثارها ونتائجها. فكانت عواقب هذه السلوكية أنّه أصبح ظنينًا، ولم يثق بأحدٍ، في أيّ أمرٍ. وانتهى أمره بقتل زوجته، وأراد أن يقتل الموسيقي ويقدم على الانتحار.

ونرى في قصة «الشيطان» التي كتبها تولستوي في العام نفسه، الذي كتب فيه قصة «لحن كريتسر» أيّ في عام ١٨٨٩، جريمة قتل تمت بسبب الزنى. وتبدأ القصة بتصدير حول الإخلاص في الحياة الزوجية «سمعتم أنّه قيل، لا تزن. أمّا أنا فأقول لكم، إنّ كلّ من نظر إلى

امرأة حتى ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه. فإن أعثرتك عينك اليمنى فاقلعها، وانتبذها عنك بعيدًا، فإنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنّم، وإن أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها، واطرحها عنك بعيدًا، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يذهب جسدك كلّه إلى جهنم» (٣٧).

كان لبطل القصة علاقة قبل الزواج مع فلاحةٍ متزوجةٍ. وكان المجتمع يبرّر مثل هذه العلاقات، ولذلك فإن ارتينييف، لم يتحسس أيّ ذنب أو تقريع ضميرٍ. وكان يأمل ألا تترك هذه العلاقة عواقبها بعد الزواج، ولكنّ الأمور سارت بصورةٍ أخرى. فجرت الرياح بما لاتشتهي السفن، لأنّ كلّ أمرٍ يترك عواقبه وآثاره في نظر تولستوي.

وكان ليف تولستوي قد كتب قبل ذلك بعامين مسرحية «سلطة الظلام» وأخذ التصدير لهذه المسرحية من الإنجيل حول تحريم الزنى. بطل هذه المسرحية نيكيتا عامل أغوى فتاةً، اسمها مارينا وبعد ذلك مارس الحب مع زوجة معلمه أنيسا، وأقدم على قتل زوجها بطرس، وبعد ذلك يقدم على قتل ابنه الطفل. لا يرتاح والده أكيم الذي يخاف الله، من تصرفات ابنه، ولذلك ينبّهه والده: «نيكيتا تستطيع إخفاء تصرفاتك عن الناس، ولكنك لن تستطيع إخفاءها عن الله. أنت نيكيتا لن تستطيع الكذب...» (١٠٢ص١٤١).

يرى الوالد المتقدم في السن أنّ ابنه يسير نحو الهلاك، لأنّ الخطيئة تجر الأخرى. ويقع الابن في الشبكة. ويتبين أنّ الوالد كان محقًّا. فلم يستطع نيكيتا في نهاية المسرحية تحمّل الخطيئة، فيعترف أمام الجميع بخطيئته.

يتحدث تولستوي عن فساد العالم المعاصر في قصة «فرانسوازا»، التي كتبها في عام ١٨٩٠ واقتبسها عن قصة الكاتب الفرنسي موباسان «المرفأ»، خلال مدة أربعة أعوام لم ير

البحّار ديو كلو وطنه، وفي إحدى المرات ذهب إلى مقهى والتقى بفتاة وعرف فيما بعد أنّ هذه الفتاة أخته، وفهم بطل القصة سيليستين ديو كلو أنّ لهذه النساء أخوة مثله.

كتب ليف تولستوي حول قصة موباسان: «تتصف القصة بقوةٍ هائلةٍ. فهي عميقة وذات تأثير أخلاقي.» (١١٨ص ٥١).

وأصدر تولستوي رواية «البعث» في عام ١٨٩٩، وهي تبدأ بتصديرٍ من الإنجيل، الذي يعبّر عن الفكرة الأساسية للرواية. مثله مثل التصدير لرواية «آنّا كارينينا»، يتضمن التصدير المعنى التالي: لا يحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان، لأنّه من أجل ذلك يوجد قاضٍ أساسيّ وهو الله، لأنّ الناس كلهّم مخطئون وحتى القضاة مخطئون أمام المتهمين.

لا يحق لنيخليودوف إدانة كاتيوشا ماسلوفا، لأنّها كانت ضحية جريمته. وشاء القدر أن يحاكمها نيخليودوف الذي أساء إليها، وهي أحق بمحاكمته منه بمحاكمتها، لأنّ كاتيوشا ماسلوفا لم تسيء إلى نيخليودوف أو لغيره، أمّا هو فقضى على حياتها. فهم نيلخيودوف هذا الأمر، وحاول مساعدة كاتيوشا ماسلوفا.

نظر نيخليودوف إلى الزنى كوسيلةٍ للترفيه عن النفس، مثل بطل قصة «فرانسوازا»، لكنه فهم فيما بعد أنّ الزنى خطيئة عظيمة لابدّ من دفع ثمنٍ عظيم للتكفير عنها.

كتب ليف تولستوي في عام ١٨٧٩-١٨٨٠ (اعترافه) الشهير، لكنه لم يعلم أنّ هذا المؤلف سيرى النور مباشرةً، لكنه رأى أنّ هذا المؤلف سينشر يومًا ما لأنّه يتضمن أفكارًا صحيحةً.

ويكتب تولستوي في (اعترافه) أنّه لم يستطع أن يعرف معنى الحياة في طبقته، لأنّ حياة طبقته شبيهة بالحياة وليست حياةً. فهذه الطبقة قليلة العدد وشاذة، ولذلك توجه تولستوي

إلى الشعب الكادح، الذي كان يفهم أنّ معنى الحياة هو تطبيق إرادة الله، لأننا جئنا إلى هذا الكون بإرادته. ولقد خلق الله الإنسان خلقًا يجعله يستطيع أن يخلص نفسه. ويستطيع أن يهلكها، أيّ أنّ الله ترك للإنسان حق الاختيار. فرسالة الإنسان في هذه الحياة تتلخّص بإنقاذ روحه، ولذلك يجب عليه أن يعيش بمخافة الله، أيّ يجب عليه أن يعمل ويصبر ويتواضع ويرحم الآخرين.

تثير الانتباه نهاية «الاعتراف» حيث يتحدث تولستوي عن حلم وجد نفسه على حافة منحدرٍ، فنظر إلى الأسفل وخاف من السقوط. ونظر آنذاك إلى الأعلى ورأى السماء الكبيرة اللامتناهية. وجذبته السماء بعظمتها، وزال الخوف. وأكّد تولستوي أنّه رأى هذا الحلم، ولم يتخيله. فلقد سأله «ن.ن. غوسيف» في عام ١٩٠٨: هل رأى أحلامًا مهمةً؟ وذكّره بالحلم الذي يصوّره في «الاعتراف» فأجاب تولستوي بحيويةٍ: «نعم لقد رأيت هذا الحلم، ولم أصوره من خيالي» (١٤٥ص٨٦).

أمّا في كتابه «بما أومن؟» الذي كتبه في عام ١٨٨٤، فيلخص تولستوي مضمون الوصايا الإنجيلية الخمس، أو القواعد التي تتضمن جوهر الدين المسيحي، كما فهمه.

الوصية الأولى: «عش في العالم مع كلّ الناس. ولاتظن غضبك على الناس عادلًا أبدًا، ولا تعتبر أيّ إنسان ضائعًا أو مجنونًا، مهما كان، واعتبر غضبك على الآخرين ظلمًا، وغضب الآخرين عليك عدلًا» (١٠٠ص٣٥١). وتحرم الوصية الثانية ليس الزنى فحسب، بل النظر إلى المرأة نظراتٍ شهوانيةٍ.

أما الوصية الثالثة فتتلخّص بعدم جواز تأدية القَسَم مهما كانت الأسباب، لأنّ القسم يتناقض مع العقل، ويعني التخلي عن العقل.

وتتلخص الوصية الرابعة بعدم مقاومة الشر بالشر، وبعدم مقاومة العنف بالعنف. أيّ يجب مقاومة الشر بكل الوسائل ماعدا الوسائل الشريرة. أمّا العنف أيضًا فيجب مقاومته لكن ليس بالعنف.

أمّا الوصية الخامسة فتنص على عدم التفرقة بين شعبٍ وآخر ومعاملة الناس الغرباء مثل الأقرباء ومعاملة الآخرين كما تحب أن يعاملك الآخرون.

ويرى الكاتب الروسي أنّ الناس يستطيعون بناء مملكة الله على الأرض، فيما لو طبقوا الوصايا الخمس المذكورة.

ويبلور تولستوي مبادئ نظراته الإنسانية بما يلي: الحياة من أجل الذات أنانية، وغبية. وحياة الإنسان في الحاضر متصلة بحياته الماضية والمقبلة، وهي صلة وصل بينهما، ولذلك فالإنسان في الحاضر يتمتع بالخيرات التي تركها له أسلافه، ويجب أن يترك خيرات للناس الذين سيعيشون بعده.

تولستوي وفلسفة الدين

آمن ليف تولستوي بالله، واحترم الديانات السماوية إلا أنه انتقد النظام الاجتماعي القائم، ورأى أنّ بعض المؤسسات الدينية تقدم خدمات للسلطات الحاكمة أحيانًا على حساب الفقراء والكادحين، أي أنه آمن بالغيب، إيمانًا كبيرًا، إلا أنه انتقد بعض رجال الدين.

ومع أنّ وجهة نظره تختلف اختلافًا جذريًا عن وجه نظر لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) لأن الأخير كان ماديًا ملحدًا، في حين أنّ تولستوي لم يكن ملحدًا، مع هذا، فلقد قدّر لينين موقف تولستوي من رجال الدين تقديرًا عاليًا، فكتب في عام ١٩١٠ في مقالته (ل.ن. تولستوي): «حرم المجمع المقدس ليف تولستوي من الكنيسة، هذا أفضل» (١٦٦ص ٢٢)

انتقد ليف تولستوي رجال الدين الكاثوليك والأرثوذكس والآخرين لابتعادهم عن جوهر الدين وذلك في بحثه «ملكوت الله في داخلكم» (١٠٤ ص ٦٢- ٦٣).

أمّا عملاق الرواية الروسية دوستيفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) الذي تبادل مع تولستوي الاحترام والمحبة، ومع أنهما عاشا في فترة واحدة وفي دولة واحدة، فإن أحدهما لم يـر الآخـر، ومات دوستيفسكي دون أن يلتقي تولستوي.

وكانت هناك نقاط مشتركة في نظرتهما إلى الدين ونقـاط خـلاف. فكـان دوستيفسكي متعصبًا لقوميته الروسية ولطائفته الأرثوذكسية، ولذلك انتقد الطوائف المسيحية الأخرى مثل الكاثوليكية والبروتستانتية... على سبيل المثال انتقـد في بحثـه «مـذكرات شـتوية عـن انطباعات صيفية» (١٨٦٣) الكنيسة الإنجيلية التي رآها في أثناء زيارته لبريطانيا، لأنها برأيه تعبر عن مصالح الأغنياء (١٣١ ص٧٣).

وبعد مرور خمس سنوات من كتابته «مذكرات شتوية عن انطباعات صيفية» أي في عام ١٨٦٨ أصدر دوستيفسكي روايـة «الأبلـه»، ينتقـد بطـل الروايـة المـذكورة واسـمه الأمـير ميشكين الكنيسة الكاثوليكية (١٣١، المجلد الثـامن ص٤٥٠) وكـذلك يتكـرر الانتقـاد في روايـة «الـشياطين» ١٨٧١ عـلى لـسان أحـد أبطـال الروايـة واسـمه شـاتوف. واسـتمر دوستيفسكي في انتقاده للكنائس غير الأرثوذكسية في روايته الأخيرة «الأخوة كارامـازوف» التي نشرها في عام ١٨٨٠، أما تولستوي فانتقـد الكنـائس كلّهـا بـما في ذلـك الأرثوذكـسية لتضامنها مع الأغنياء ضد الفقراء، ولتعاطفها مع الحاكم ضد المحكوم.

وبدأت هذه الأفكار لدى تولستوي منذ شبابه. يقول في قصته «المراهقة»: «وأستطيع أن أقول مؤكّدًا، بأنني خطوت الخطـوة الأولى في مجـال الـشك الـديني في شـبابي» (٩٤ص٤٤)

وصدرت هذه القصة، كما هو معروف في عام ١٨٥٤. في أثناء دراسته في جامعة كازان، كانت تراود تولستوي بعض الأفكار التي لا تنسجم مع تعاليم الكنيسة.

وكذلك نجد مثل هذه الأفكار في رواية «الحرب والسلام» (١٨٦٣ - ١٨٦٩) على لسان بيير بيزوخوف، الشخصية الرئيسية في الرواية المذكورة(٩٧ص ٢٩٧).

ونجد مثل هذه الأفكار في مسرحية تولستوي «ويضيء النور في الظلمة» التي كتبها في عام ١٩٠٢ إذ يطالب بطلها واسمه باريس بتوحيد الكنائس من أجل توحيد قلوب المؤمنين، ويركز على الدعوة إلى المحبة والتسامح.

لعل أحد المؤلفات الفكرية الرئيسية لتولستوي هو «اعترافه» الذي كتبه في عام ١٨٨٠، وكتب تولستوي أن إيمان الوسط المتعلم ليس إيمانًا، وما هو إلا وسيلة من أجل الوصول إلى بعض الأهداف الحياتية المؤقتة. ولا معنى لحياة هؤلاء الناس، فإن حياتهم هي جريمة بحد ذاتها.

هكذا كانت حياة الأمير - ابن الملك بوذا، وكذلك كانت حياة الملك سليمان، وحتى حياة تولستوي نفسه الذي يكتب في «اعترافه» أنه أراد الانتحار لأنه لم يجد جوابًا عن معنى الحياة، أي لم يجد جوابًا عن سؤال: لماذا الحياة؟

لم يجد تولستوي جوابًا عن سؤال معنى الحياة، ولذلك التجأ إلى التاريخ والفلسفة. ففي حكمة النبي سليمان لم يستطع تولستوي أن يجد الإيمان الذي يخلصه من فكرة الانتحار التي كانت تراوده، لأن النبي سليمان نفسه رأى أن الحياة كلّها تعب وأفكار مقلقة ولافائدة للإنسان من أتعابه تحت الشمس. اعتبر سليمان الحكيم أن لاجديد تحت الشمس، كل شيء يذوب تحتها.

لا ذكرى للأسلاف ولن تكون ذكرى للجيل الحالي ولا للأجيال القادمة. سينسى التاريخ جميعهم. وجد تولستوي في آراء النبي سليمان صدى لأرائه. فلقد كانت تجول بباله

الأفكار ذاتها التي كانت تراود النبي سليمان حول عدم جدوى الحياة. ولذلك حاول أن يجد معنى الحياة في تعاليم الملك بوذا- مؤسس الديانة البوذية، ولكن بوذا قال إن الحياة شقاء وتعب وتتخللها الأمراض والصعوبات وتنتهي بالشيخوخة والموت. وقال بوذا لا عزاء في الحياة بل الحياة شر كبير بحد ذاتها، ولذلك يجب علينا أن نتخلص منها، وهكذا فإن إيمان وعقيدة بوذا والنبي سليمان لم تجيبا على تساؤلات تولستوي عن معنى الحياة ومضمونها، كما لم تجب عن هذه التساؤلات فلسفة سقراط وشبنهاور، أي الفلسفة في قديمها وفي حاضرها.

رأى تولستوي أن حياة الناس في الوسط البورجوازي فارغة وغير منطقية وغير عقلانية وتعني لاشيء أي تساوي الصفر. ولذلك أخذ تولستوي يفتش عن معنى الحياة عند أولئك الذي يصنعون الحياة أي يصنعون أسباب العيش لأنفسهم ولغيرهم، أي عند الشعب الكادح، ووجد تولستوي أن الشعب الكادح يحمل الإيمان المسيحي الحقيقي الصادق، وليس الإيمان المزيّف الكاذب أو كل ما يموه ويغطي الإيمان الحقيقي. تمر حياة الشعب الكادح كلّها بالأعمال الصعبة وبالظروف المعيشية الفقيرة، ومع هذا فإنه أقل تذمّرًا من الحياة من الناس الأغنياء.

«يعمل الفلاحون، ويتحملون الحرمان والألم، يعيشون ويموتون ويرون في هذه الحياة الخير وليس الشر» (١٠٠ص ٤٠) . كما أنه كرر الأفكار ذاتها في بحثه بعنوان: «ما العمل؟». وفي كلمة له عن قصته «لحن كريتسر» (١٠٠ص ٤٦٤) ولقد أشار أحد النقاد واسمه كاشيرين إلى أن رواية «البعث» ١٨٩٩ هي الأكثر انتقادًا لرجال الدين (١٥٥ص ١٥) .

موقف رجال الدين من أفكار تولستوي:

لم تقف الكنيسة موقفًا غير مبالٍ من انتقادات الكاتب الروسي الكبير لتعاليم الكنيسة. ولذلك فلقد انبرى للدفاع عنها من كان مؤمنًا بهذه التعاليم ومنهم كونستانتين ليونتيف، الذي ألف كتابًا بعنوان «مسيحيونا الجدد» ينتقد كونستانتين ليونتيف في كتابه كلًا من فيدور دوستيفسكي وليف تولستوي لابتعادهما عن الكنيسة، ويرى ليونتيف أن كلًا من تولستوي ودوستيفسكي يبشر بالمسيحية الرومانسية أو الوردية وعلى أية حال فهما بعيدان عن الكنيسة، وبدون الكنيسة لايمكن، برأيه، إدراك جوهر المسيحية، ويرى أن الكنيسة عرفت في الماضي مثل هذه الظواهر.

ينتقد كونستانتين ليونتيف فهم تولستوي للديانة المسيحية ويعتبره فهما خاطئًا ويرى أن تولستوي يتجاهل بعض الأمور الدينية، ويستبعد بعضها الآخر ويرفض قبول بعض الأمور الدينية، ولذلك فالمسيحية تتلائم مع أفكاره، أي ماتبقى من المسيحية يتناسب مع أفكار تولستوي. ويحلل ليونتيف الأسطورة التي ألفها تولستوي بعنوان «بم يعيش الناس؟». يقول ليونتيف إنّ تولستوي صدّر أسطورته بآياتٍ إنجيلية حول الحبّ، مع العلم أنّه توجد في الانجيل آيات تحث الناس على التواضع والخوف والخضوع. ويرى أن الحبّ في نظر تولستوي حبّ مجرد، أي بعيد عن الواقع، ومثل هذا الحب يؤذي ولايفيد لأنه لايؤدي إلى نتائج إيجابية، وإنّما إلى نتائج سلبية وإلى عكس النتائج المرجوة، أيّ مثل هذا الحبّ يؤدي إلى الكراهية «الحبّ المطلق الكامل للإنسانية، مثل هذا الحبّ غير الموجه ماهو إلا كذب وخداع للنفس» (١٦٤ص٥٣) وبعد ذلك يكتب ليونتيف: «الحبّ للإنسانية خطوة بعد خطوة... بسهولة يمكن أن يؤدي إلى نسيان جوانب الشخصية الأخرى. وحتى يمكن أن يؤدي إلى كراهية هذه الجوانب» (١٦٤ص ٥٤).

يعترف ليونتيف بأن السيد المسيح لم يعد الناس بانتشار الحبّ على الأرض وسيادة الحق عليها، بل العكس هو الصحيح، فلقد تنبأ السيّد المسيح باضمحلال الحبّ. ويعتقد ليونتيف بأن من الواجب حب الكنيسة ورجال الدين، لأنها تعكس الحقيقة المسيحية «محبة القريب القائمة على محبة الكنيسة وتعاليمها، هذا هو الحبّ المسيحي الحقيقي» (١٦٤ص ٦١).

وبعد مرور بضع سنوات على صدور كتاب ليونتيف «مسيحيونا الجدد» التقى تولستوي به، وتحدث معه، فقال له ليونتيف: «أنت لاأمل منك يرجى» فأجابه تولستوي: «أما أنت أيرجى منك الأمل!»

ففي رسالة إلى ت.ي. فيليبوف كتب ك. ن. ليونتيف حول حديثه مع ل.ن. تولستوي، نرى من خلال قراءتنا لهذه الرسالة أنّ ليونتيف قال لتولستوي : «آسف، ياليف نيكولايفتش لأنّني متردد وغير حازم. ولو كنت حازمًا لكتبت إلى بطرسبورج، حيث توجد عندي مجموعة من الأصدقاء والعلاقات، لكي يرسلوك إلى تومسك، مع عدم السماح لزوجتك ولبناتك بزيارتك، ولكي يرسلوا لك نقودًا قليلة لأنك بالفعل مؤذٍ!» وأجاب عن هذا ليف نيكولايفيتش بحرارة: «عزيزي كونستانتين نيكولايفيتش اكتب، من أجل الله، بالله عليك أن تكتب لكي ينفوني. هذا هو حلمي. إنّني أقوم بكلّ ماأستطيع لكي لاترضى الحكومة عني، لكنني لاأحصل على نتيجة، أرجوك أن تكتب» (١٣٧ص ١٣٥).

ظهرت أفكار تولستوي المذكورة عن الكنيسة في نهايات السبعينات وبداية الثمانينات ولكن الأرضية لظهور هذه الأفكار كانت جاهزة في فجر إبداع الكاتب. كتب ليف تولستوي في وصيته لأقاربه لكي لايسمحوا لرجال الدين بالصلاة على جثمانه. رأى تولستوي أن تعاليم الكنيسة حول الخطيئة الأصلية التي وقع بها آدم في الجنة غير صحيحة.

وعندما نتحدث عن انتشار أفكار ل. تولستوي في الشرق نعني انتشار فكره الـديني أو أنّ آراءه الدينية لقيت صدى لها في المشرق العربي. فكما أكدت الدكتورة آنـا دالينينـا: «لاقـت أفكار تولستوي رواجًا واهتمامًا لدى المسيحيين والمسلمين، الذين ينادون بالاصلاح الديني، والذين يقفون ضد المؤسسات الدينية وضد الخرافات» (١٢٦ص ٢٣٢).

ظهرت جماعة من الكتاب العرب منذ مطلع القرن العشرين، نـددوا باستغلال رجـال الدين للشعب وانتقدوا الخرافات الغيبية. فانتقد هؤلاء الكتاب رجـال الـدين لأنهـم باسـم الدين يستغلون الناس البسطاء. ولايوجد أدنى شك بأن هـؤلاء الكتـاب عـلى معرفـة تامـة بأفكار تولستوي. وعلى كل حال يوجد شبه بين أفكارهم وأفكار ليف تولستوي الدينية. من بين هؤلاء الكتاب فرح أنطون، أمين الريحاني، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمـه، إليـاس فرحات، مصطفى لطفي المنفلوطي وغيرهم.

***

٣- فرح أنطون وليف تولستوي:

كان الكاتب العربي فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) أحد الكتـاب الـذين تقبلـوا نقـد تولستوي للكنيسة. يرى فرح أنطون أن الكنيسة في الأزمنة الغابرة وفي الوقت الحاضر تعلـم الناس القناعة، ولقد نقل إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية كتاب المفكر الفرنـسي المشهور رينان «حياة يسوع» ومن المعروف أن الكاتب الفرنسي المذكور نظـر إلى حيـاة الـسيد المسيح نظرة واقعيةً. ولذلك انتقد الشيخ محمـد عبـده (١٨٤٩-١٩٠٥) مفتـي الـديارة المصرية، رئيس جامعة الأزهر، فرح أنطون لترجمته «حياة يسوع» لرينان، ولنشاطاته الأخرى.

لقد عبر فرح أنطون عن آرائه الدينية في مؤلفاته المختلفة، ففي كتابه «ابن رشد وفلسفته» (١٩٠٣) يؤكد فرح أنطون أن إلهام في الدين هو الجوهر وليس الطقوس. كما أكد في مقالته حول عمر الخيام أن عمر الخيام كان حكيمًا فمن المعروف أن عمر الخيام كان سكيرًا، ومنحلًا.

ويعبر كليم - أحد أبطال قصته «الوحش، الوحش، الوحش، أو سياحة في أرز لبنان» (١٩٠٣) عن أفكار فرح أنطون. ولقد أكدت آنّا دالينينا أن هذه الرواية تعكس آراء تولستوي: «يرى فرح انطون مثله مثل تولستوي أن السعادة لأصحاب النفوس القوية والمستقيمة والمخلصة» (١٢٨ص١٨٦) وكتبت المستشرقة السالفة الذكر:

«ويرى فرح أنطون أن محاربة الشرّ يجب أن تتم بوسائل طيبة مثل الوداعة والتسامح، وهنا أيضا يمكن أن نرى صدى أفكار تولستوي» (١٢٨ص ١٨٥) .

ففي روايته التاريخية «اورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس» (١٩٠٤) يعبر فرح أنطون عن فكرته بأن على الإنسان محاربة الشر بكل الوسائل ماعدا وسائل الشر والعنف، لأن العمل الطيب يولد عملًا طيبًا في حين أن العمل الشرير يولد عملًا شريرًا أي بعمل الخير ينتشر الخير وبالشر ينتشر الشر. ويطالب الإنسان بتلبية الحاجات الروحية وبعد الاهتمام بالحاجات المادية والجسدية، ويرى فرح أنطون أن الله يطالب الإنسان بعمل الخير، وهنا يمكن أن نرى أصداء أفكار تولستوي الذي انتقد بعض جوانب حياة رجال الدين.

على الرغم من أن أحداث رواية «أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس» تجري في القرن السابع، إلا أن فرح أنطون أراد أن ينتقد المجتمع المعاصر. فالراهب ميخائيل في رواية «أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس» يعتقد بأن الكنيسة تخطئ عندما تعلّم

الناس القناعة وعدم الاهتمام بالحياة الدنيا والاهتمام فقط بالحياة الآخرة. وينادي الراهب ميخائيل بضرورة بناء المجتمع العادل حيث يعيش فيه الناس بالمحبة وكأنهم في أسرة واحدة.

يرى المستشرق أ.ي. شيفمن الذي كان يعمل في متحف تولستوي الأدبي في موسكو أنّ رواية «أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس» تذكّرنا برواية تولستوي «الحرب والسلام»:

«ومن هنا نرى في إبداع فرح أنطون الاهتمام بالأحداث التاريخية الكبيرة التي تعكس حركة الجماهير الشعبية، ومشاعر أفراد عاديين. والرواية مفعمة بالأفكار الفلسفية وبذلك فهي تشبه رواية «الحرب والسلام» (١٣٩ص٣٩٣) .

***

٤ - أمين الريحاني وتولستوي:

كرس أمين الريحاني إحدى مقالاته لتولستوي كما ذكرنا في الفصل الأول. وعبر عن آرائه الدينية في أعماله المختلفة. فهي تتفق مع آراء تولستوي، في كتابه «الريحانيات»، حيث نشر مقالته عن تولستوي نشر أيضًا مقالة بعنوان «خطاب المسيح» (١٩١٠) يقول إن اتباع المسيح لايطبقون تعاليمه..

ويقول السيد المسيح في خطابه: «فيا ملوك الزمان وياسادة الأرض. لقد بشرت منذ تسعة عشر قرنًا بالسلام على الأرض والرجاء الصالح لبني البشر. فهل تفهمون بالسلام الحروب. وهل تظهرون رجاءكم الصالح بمدافعكم القتالة ومدرعاتكم الهائلة! (٢٢ص١٤٥).

وفي شهر شباط من عام ١٩٠٠ في الذكرى السنوية الأولى لتأسيس الجمعية المارونية في مدينة نيويورك ألقى أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) كلمة نادى فيها بعدم التفرقة الطائفية وبالصبر والتسامح وبالمحبة.

وفي الوقت نفسه الذي حرمت فيه الكنيسة في روسيا تولستوي لعن فيه أحد الأساقفة الريحاني وحرمه من لقاء المؤمنين، وكان الريحاني مؤمنًا ومن أنصار الإيمان السليم الحقيقي فكان يؤمن بالله ويرى أن الإيمان هو سلوكية الإنسان.

وفي بعض أعمال الريحاني الإبداعية يرى ضرورة مساعدة الشعب الفقير الذي يعاني الكثير من ضائقة العيش.

كان أمين الريحاني يناضل من أجل الإيمان الحقيقي الذي يتلخص في المحبة والعمل الإنساني وتقديم المساعدة للآخرين. وبذلك فإن نظرة الريحاني إلى الدين تتفق ونظرة ليف تولستوي. فلقد صور ريبن الرسام الروسي الشهير تولستوي وهو يصلي في الغابة. فهذه اللوحة تدل على إيمان تولستوي بأنه يمكن الصلاة في الغابة، وكذلك كان يؤمن الريحاني الذي يرى أن الله هو المحبة.

والدين هو الاستقامة والاخلاص والصبر والمعاملة. من آمن بالمحبة آمن بالله وهذه هي أعلى درجات الإيمان.

ولكن الفرق الأساسي بين أمين الريحاني وبين ليف تولستوي هو أن الريحاني لم يكن متناقضًا مع ذاته مثل تولستوي ولم تكن في تعاليمه نقاط ضعف فهو يؤمن بمبدأ تطبيق العنف من أجل الوصول إلى الخير. فهو من أنصار الثورة. كتب في عام ١٩١٠ قصيدة بعنوان «الثورة»، نادى بقصيدته بالثورة وبالنصر، ومع هذا فقلد كتب عنه الاكاديمي كراتشوفسكي: «بأن المسائل الروحية والأخلاقية تهمه أكثر من المسائل الاجتماعية» (١٦١ص١٣٩).

ولقد كتبت الدكتورة آنّا دالينينا في مقدمة كتاب «النثر العربي المعاصر» وفي كتاب «النثر الرومانسي العربي» أن الرِيحاني يطالب بتحسين العالم عن طريق تحسين أخلاق الأفراد وعن طريق التعليم. ويذكرنا هذا بمواعظ تولستوي (١٢٤ص٩).

الفصل الثالث

الإسلام ورسوله

في (عيون تولستوي)

« لا يوجد نبي حظي باحترام أعدائه سوى النبي محمد ﷺ مما جعل الكثرة من الأعداء يدخلون الإسلام »

« أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد ﷺ الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه ، وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء »

ليو تولستوي

من المعروف بداهة لكل ذي عقل وقلب رشيد أن الإسلام ليس في حاجة إلى شهادة أو رأي أي إنسان؛ مسلم أو غير مسلم؛ كي يدلل على أن الإسلام دين حق نزل به الروح الأمين على خاتم رسل الله أجمعين كي يخرج الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور؛ لأن الإسلام هو بالفعل كذلك دين يمتلك بداخله مقومات ربانية تعليه في كل زمان ومكان، فهو شاهد على البشرية وحُجة عليهم إلى أن تقوم الساعة، وليس العكس.

فمن الذي من الممكن أن تسوّل له نفسه كي يقف يقول؛ أنا شاهد على الإسلام وعلى رسول الإسلام، اللهم إلا في حالة نشر الدعوة بين أناس غير مسلمين، أو كان رجلًا منصفًا وقف ليصدّ بكلماته لكلمات الظلم وقول الزور التي يقولها غير المنصفين في الشرق والغرب.

ومن هنا أقول إنه كما أن شهادة الرجل الذي شهد في حق يوسف عليه السلام حين اتهمته امرأة العزيز بمراودتها؛ لا تعلي ولا تدني من قيمة يوسف عليه السلام الذي أعلى الله قدره بالرسالة والنبوة – فإن أيضًا كلمات تولستوي وغيره من المنصفين التي قالوها في حق الإسلام ورسوله لا تعلي كذلك من قيمة الإسلام ورسوله ولا تدني. لكنه ربما يكون دليل واضح يصفع أهل الزور في وجوههم؛ الذين كذبوا على الإسلام ورسوله وساهموا في تضليل الناس قرونًا طويلة،قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

لذا فلا غرو أن نجد رجلًا منصفًا كتولستوي يخرج على قومه وأبناء عشيرته الذين تربى في وسطهم، والذين يعيشون في مجتمع يعج بالجهل والظلم الفساد – ويقول لهم إن الإسلام هو الدين الحق الذي أنزله الله من عنده، وليس الأمر بعجيب بالنسبة للإسلام ورسوله لأنه متكرر في كل العصور والأزمان؛ فمثلما تأثر وانفعل الذين آمنوا برسالته كذلك تأثر الذين لم يؤمنوا به بل والذين ناوؤه كالوليد بن المغيرة المخزومي مثقف العرب وحكيمهم الذي عاش ومات على الكفر: قال إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وأسفله

لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأمية بن أبي الصلت الثقفي هذا المثقف الكبير والشاعر الذي اطلع على تاريخ الأديان والأمم وقف مبهورًا أمام عظمة الرسول ﷺ حين التقاه في مكة؛ حيث راح النبي ينظر إليه ويقرأ عليه سورة (يس)، وحين عاد إلى قومه؛ قيل له ما تقول في محمد؟ قال إنه نبي وعظيم، ولكن قلبي لا يطاوعني فيه. ومثلما كان النبي ملهمًا لمعاصريه كان ملهمًا ومعلمًا لمن اطلع على سيرته ونهجه من المسلمين وغير المسلمين.

كثيرون أولئك الذين وقفوا مبهورين أمام عظمة هذه الشخصية العملاقة شخصية محمد ﷺ منذ أن أشرق نوره حتى يومنا هذا إلا أن مع الأسف أن من يحاول تشويه صورة النبي الناصعة أولئك المحسوبين على الإسلام المدفوعين من الحاقدين عليه.

وتالله إن المرء ليعجب أشد العجب حينما يسمع ويرى التهجم على نبي الإنسانية من ثُلَّةٍ من الغربيين جاهلة بالقيم وجاهلة بالمعرفة ومظللة من قبل الحاقدين، لكن الحق ينطق على لسان المنصفين والمثقفين منهم، وفي الوقت ذاته فإن قول هؤلاء المثقفين هو الدليل الذي يلجم الأفواه والأقلام التي تصف الرسول الكريم بأنه نبي الحرب والدم.

وكان تولستوي واحدًا من أولئك المنصفين في القرن التاسع عشر الذين قيّض الله لهم أن يكونوا على غير دين الإسلام؛ كي يلهجوا بكلمة الحق المنصفة وسط أقوامهم الذين عميت عنهم كل الحقائق؛ فوقفوا وقالوا بعضًا مما يجب أن يقال عن الإسلام ورسوله. ومنهم من أسلم ومنهم قال كلمة الحق وظلّ على ما هو عليه لاعتبارات أخرى لا يعلمها إلا الله، وقبل أن نلج إلى عالم تولستوي وإلى كلماته التي قالها عن الإسلام ورسوله، نستعرض سريعًا ما يدعم الموضوع ويقويه من بعض مقولات أهل العلم والفلاسفة التي قالوها في حق الإسلام ورسوله؛ تدبر هذه المقولات مثلًا:-

جورج برنارد شو

«لقد اطّلعت على تاريخ هذا الرجل العظيم محمد ﷺ، فوجدته أعجوبةً خارقةً، لا بل منقذًا للبشرية، وفي رأيي، لو تولى العالم الأوروبي رجل مثل محمد ﷺ لشفاه من علله كافة... لقد نظرت دائمًا الى ديانة محمد ﷺ بأعلى درجات السمو بسبب حيويتها الجميلة. إنها الديانة الوحيدة في نظري التي تملك قدرة الاندماج... بما يجعلها جاذبة لكل عصر، وإذا كان لديانة معينة أن تنتشر في انجلترا، بل في أوروبا، في خلال مئات السنوات المقبلة، فهي الاسلام...»

ويقول أيضًا: «إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشروط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافق الحياة... ما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد ﷺ ليحل مشاكل العالم».

توماس كارلايل

«إنما محمد ﷺ شهاب قد أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»

كارل ماركس أبو الشيوعية

«جدير بكل ذي عقل أن يعترف بنبوءة محمد ﷺ، وأنه رسول من السماء إلى الأرض.. هذا النبي افتتح برسالته عصرًا للعلم والنور والمعرفة، وحري أن تُدوّن أقواله وأفعاله بطريقة علمية خاصة. وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه أن يمحو ما كان متراكمًا من الرسالات السابقة من التبديل والتحوير».

الشاعر الألماني غوته

«بحثت في التاريخ عن مثلٍ أعلى لهذا الإنسان؛ فوجدته في النبي العربي محمد ﷺ... وإننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد ﷺ، وسوف لا يتقدم عليه أحد.»

«كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي... القرآن كتاب الكتب، وإني أعتقد هذا كما يعتقده كل مسلم.»

الشاعر الفرنسي لامارتين

«أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود.. ليس هناك رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد ﷺ، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق.»

عالم اللاهوت السويسري د.هانز كونج

«محمد ﷺ نبي حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمدًا هو المرشد القائد إلى طريق النجاة.»

القائد الفرنسي نابليون

«إن أمةً يوجد فيها مثلُ هذا الكتاب العظيم لا يمكن القضاءُ عليها أو على لغتها.»

العالم الأمريكى مايكل هارت

«لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقي بحروفه كاملًا دون تحوير سوى القرآن الذي نقله محمد ﷺ».

«ولما بلغ غوته السبعين من عمره، أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ.

أرنست رينان

«عندما تستمع إلى آياته تأخذك رجفة الإعجاب والحب، وبعد أن تتوغّل في دراسة روح التشريع فيه لا يسعك إلا أن تعظّم هذا الكتاب العلوي وتقدّسه».

الدكتور العالم النرويجي في جامعة أوسلو

«لا شك في أن القرآن من الله، ولا شك في ثبوت رسالة محمد ﷺ».

القائد الكبير بسمارك

«أعطوني فقط ستة آلاف مسلم لأحرر من خلالهم العالم من الظلم.»

المفكر والفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون

«لم يشهد التاريخُ فاتحًا أرحمَ من العرب»

وهذه المقولات هي جزء بسيط مما قيل عن الإسلام ورسوله عبر العصور، ونقطة في بحر مترامي الأطراف مما يجب أن يقال عن الإسلام ورسول خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

تولستوي والمسيحية

نشأ تولستوي وسط عائلة مسيحية؛ إلا أنه كان دائمًا ثائر الفكر يسأل دائمًا عن الأشياء الغامضة ولا ترتاح نفسه إلا حين يصل إلى الحل الجلي الواضح الذي يفضّ له مغاليق الأمور، ورجل كتولستوي لا بد أن تستوقفه بعض تعاليم المسيحية المليئة بالأسرار التي لا يعلمها من بين الناس إلا القسس؛ فكان يسأل نفسه..

لماذا اختص الرب هذه الفئة من الناس بمعرفة هذه الأسرار الدينية؟! ألأنهم الأفضل من بين الناس؟!!

وكان يستوقفه هذا التناقض كثيرًا حين ينظر إلى القسيس وصورته القديمة في الريف وما يغلفها من جهلٍ محض - هكذا يقول تولستوي في إحدى مقالاته - مقررًا هذا النمط للطراز القديم لقسيس القرية؛ فهم لا يزيدون في نظر تولستوي عن العامة إلا أنهم أقل جهلًا؛ فالقسيس عنده يعرف القليل وهو أخرق وعاطل وبليد؛ فكيف اختصه الرب بأسرار الدين إذن؟!!

إنها معادلة صعبة متناقضة الأطراف أمام عقلية واعية مدققة وممحصة للأمور؛ لذا فعندما كبر تولستوي تعمق كثيرًا في القراءة الدينية، وحقيقة ذلك تتضح من خلال كتاباته الشارحة للإنجيل ومناقشاته بشأن الكتاب المقدّس؛ وكان تولستوي حينما يكون قادرًا أو راغبًا في اتخاذ موقف إيجابي تجاه جانب معين من التراث المسيحي؛ لأنه قد يبدو له متفقًا مع ضميره؛ فهو يهب هذا الجانب الموافقة الكلية المذعنة من قلبه؛ لأنه عرضه على عقله وقلبه فاستساغه؛ ولكن حينما كان يجد أيضًا في المسيحية ما لا يستسيغه القلب ولا العقل كان يلفظه كلية؛ لأنه يجده مناقضًا لمتطلّبات عقله. وتولستوي حين يرفض هذا الجانب فهو ينكره بالإنكار التمرّدي غير المتصالح الذي يبديه عقله وهو ينطق بذلك الإنكار بالسخرية المرّة.

بالقراءة المتعمقة في الجانب الديني اهتدى تولستوي إلى أن المسيحية مليئة بالمتناقضات والغموض الشديد، وهذا دفعه إلى أن يأخذ مآخذ كثيرة على القسس ورجال الكنيسة

الأرثوزوكسية، ولم يكتف بذلك، بل قام بنقد اللاهوت العقائدي نقدًا لاذعًا لا هوادة فيه مبيّنًا مخالفته لكل الحقائق العقلية.

وبدأ تولستوي يبحث عن الدين الذي يمتلك كل مقومات التغيير والتطوّر مع تطوّر البشرية في مراحلها المختلفة، كان يبحث – على حد قوله – عن دين المسيح مصفّى من شوائب الإيمان الأعمى ومن السرية؛ دين لا يقال لك فيه اغمض عينك واتبعني دون أن تسأل عن أي شيء.

وحين قرأ تولستوي عن الإسلام وجد فيه بغيته ومآربه التي لا تتعارض مع العقل ولا القلب والضمير، ووجد فيه أنه الدين الوحيد المناسب لكل عصر ولكل زمان ومكان؛ بل والأكثر من ذلك أنه تنبأ لهذا الدين الإسلامي بأنه سيغزو أوربا كلها في المستقبل القريب. وكان قبل ذلك قد سمع في صغره معلومات مكذوبة مزيفة ومشوهة عن الإسلام ورسوله محمد ﷺ والمسلمين منْ قسس الكنائس؛ لكن لما تعمق في القراءات الدينية تبين له أن الإسلام ورسوله والمسلمين على عكس ما كان يسمعه من القسس المزورين؛ لذا اشتدت حملته على رجال الكنيسة أكثر؛ وكتب مقالات أعلن فيها عن الحق الذي تبين له عن الإسلام ورسوله، وأن الذي يروج له قسس النصارى إنما هو زيف وزور لا حقيقة فيه؛ بل وزاد في ذلك بأن ألف كتابًا عن الإسلام ورسوله سماه «حِكَم النبي محمد» ويشاء السميع العليم أن يقوم بمهمة ترجمة الكتاب ونقله إلى العربية رجل مسيحي لبناني هو سليم قبعين، ويتبيّن لنا من مقدمته للكتاب مدي الكذب المنتشر عن الإسلام ورسوله ﷺ، يقول قبعين عن سبب ترجمته لكتاب تولستوي: «**بعد اطلاعي على رسالة الأديب الروسي ليو تولستوي عن الإسلام وعن النبي محمد، هالني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة فدفعتني الغيرة على الحق إلى ترجمتها إلى العربية**».

ويعرفنا قبعين بسبب تأليف تولستوي لهذا الكتاب فيقول: «رأى الفيلسوف – تولستوي – تحامل جمعيات المبشّرين في قازان من أعمال روسيا على الدين الإسلامي ونسبتها إلى

صاحب الشريعة أمورًا تنافي الحقيقة تصور للروسيين تلك الديانة وأعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية؛ فهزّته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة صغيرة اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد ﷺ ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان، وقال: هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية وهي عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السبيل ولا تقل في شيء عن تعاليم الديانة المسيحية ووعد بأنه سيضع كتابًا كبيرًا يبحث فيه أبحاثًا إضافيةً بعنوان محمد».

ولكن رجال الكنيسة الذين طمس الله على أعينهم، وختم على قلوبهم فهم لا يعقلون ولا يؤمنون حين علموا بموقف تولستوي إزاءهم وإزاء الدين الإسلامي؛ أعلنوا عليه حربًا شعواء وناصبوه العداء، واتهموه بالكفر والزندقة؛ بل واتهمه بعضهم بالجنون. إلا أنه كان هناك عدد كبير من الناس أعجبوا بآرائه، وكانوا يزورونه في مقرّه بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركًا عائلته الثرية المترفة.

وفي خارج بلاد أعجب الكثير من المسلمين برأي تولستوي، ومن هؤلاء الإمام الشيخ محمد عبده الذي بعث برسالة إلى تولستوي يخاطبه فيها بكل توقير واحترام يقول فيها: «**أيّها الحكيم الجليل، موسيو تولستوي.... لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف بروحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألّفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها فأدركت أنّ الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويتم بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى به ويرقى به جنسه وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سُنّة الفطرة، واستعملوا قواهم- التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها- فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم. (٢٩- ص٣٦٧)، ثم يتابع محمد عبده رسالته فيقول عن صراع تولستوي ضد الأغنياء: «...... وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء**

كان مددًا من عنايته للفقراء... هذا وإنّ نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنّا نسأل الله أن يمد في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم ما تقول ويسوق النفوس إلى الاقتداء بك فيما تعمل، والسلام.»

كلامه في الرسول محمد ﷺ:

يصف ليو تولستوي النبي محمد في كتابه (حِكَم النبي محمد) قائلًا هو مؤسس دين ونبي الإسلام الذي يدين به أكثر من مائتي مليون إنسان (الكلام عام ١٩١٢م) قام بعمل عظيم بهدايته وثنيين قضوا حياتهم في الحروب وسفك الدماء، فأنار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله .ثم في فصلٍ آخر من كتابه وتحت عنوان (من كان محمد): يقول: «من أراد أن يتحقق مما عليه الدين الإسلامي من التسامح فليس له سوى أن يطالع القرآن الكريم بإمعان وتدبر، فقد جاء في آياته ما يدل على روح الدين الإسلامي السامية منها»، (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).»ويقول واصفًا المعاناة التي عاناها الرسول ﷺ من أجل تبليغ الدعوة إلى الناس:«لقد تحمّل في سنوات دعوته الأولى كثيرًا من اضطهاد أصحاب الديانة الوثنية القديمة وغيرها، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه المحن لم تثن عزمه، بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدًا لم يقل إنه نبي الله الوحيد بل آمن أيضًا بنبوة موسى والمسيح ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضًا، وقال إن اليهود والنصارى لا ينبغي أن يكرهوا على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم. ويستطرد في موطن آخر قائلًا:

«ومما لا ريب فيه أن النبي محمد كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ويكفيه فخرًا أنه هدى أمة بأكملها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح

لها طريق الرقي والمدنية، وهذا عمل عظيم لا يقوم به شخص مهما أوتي من قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإجلال»كما اختار تولستوي مجموعة من أحاديث الرسول الأكرم ﷺ بلغت ٦٤ حديثًا وضمنها كتابه، ومنها:

- عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه: (اللهم ارزقني حبك وحب من ينعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله لي قوة فيما تحب).(١)
- (قل الحق وإن كان مرًّا)(٢)
- (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تأخذ فوق يديه).(٣)
- قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)، وأزيد: ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بتراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة.(٤)
- (اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة لم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا، يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشقّ تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة.(٥)

---

(١) الحديث في سنن الترمذي ، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) الحديث موجود في صحيح ابن حبان.

(٣) الحديث في صحيح البخاري.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٥) ورد في سنن الترمذي وابن ماجة، وصححه العلامة الألباني.

- (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.)[6]
- (حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.)[7]
- (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى أوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.)[8]
- (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[9]
- عن عبد الله بن عمرو أن رجلًا سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف).[10]
- (لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء.)[11]
- كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فبي عرفوني.[12]
- زنا العين النظرة وزنا النفس المنطق والنفس تتمنى وتشتهي.
- من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا.

---

(٦) متفق عليه.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٨) متفق عليه.
(٩) أخرجه الترمذي في سننه وصححه الشيخ الألباني.
(١٠) متفق عليه.
(١١) أورده الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة.
(١٢) ورد في كشف الخفاء.

- القبر أول منزلة من منازل الآخرة.
- أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عزوجل.
- إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه.
- إن الله تعالى يحب أن يرى عبده ساعيًا في طلب الحلال.
- من يصبر على الرزية يعوضه الله.
- آفة الدين ثلاثة: فقيه فاجر. وإمام جائر، ومجتهد جاهل.
- إنما النساء شقائق الرجال.
- آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله.
- الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة.
- الكذب مجانب للإيمان.
- إعقلها وتوكل.
- لا عبادة كالتفكر.
- حبك للشيء يعمي ويصم.
- لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.
- أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.
- ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدق، قالوا بلى يا رسول الله، قال: لله إصلاح ذات البين.
- إن أول خلق خلقه الله عز وجل العقل. فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر؛ فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا هو أحب إلي منك بك آخذ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب.
- ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذي تملك نفسه عند الغضب.

- ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس.
- إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال؛ فلينظر إلى من هو أسفل منه.
- دخل عمر على رسول الله وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا نبي الله لو اتخذت فراشًا. فقال ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها.
- خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به. ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله الله عليه.
- جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أحبك. قال انظر ما تقول؛ فقال: إني والله لأحبك (ثلاث مرات). قال إن كنت صادقًا فاعد محفافًا للفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه.
- ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك.
- امش ميلا عد مريضًا. وامش ميلين أصلح بين اثنين، وأمط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة.
- اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط إياك وإسبال الآزار؛ فإن إسبال الآزار من المخيلة ولا يحبها الله. وإن امرًا شتمك وعيرك بأمر هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ولا تسبن أحدًا.
- قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي. إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته؛ فقال النبي: أترون هذه طارحة ولدها في النار قلنا لا. وهي تقدر على أن لا تطرحه؛ فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها.

- من ظلم أجيرًا أجره أحبط الله عمله وحرم عليه ريح الجنة.
- عفوا تعف نساؤكم.
- علم لا ينفع كنز لا ينفق منه.
- ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد وإلا في طلب العلم.

وغيرها من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحثّ على المكارم الأخلاقية، والتي من خلالها يتمكّن غير المسلم من أن يكون صورة بسيطة واضحة لا شائبة فيها عن الإسلام ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، والمسلمين الذين اتبعوا النهج القويم.

بل ومن خلالها أيضًا يمكننا أن نحكم على شخصية وفكر تولستوي الذي اختار هذه الأحاديث وضمّنها كتابه (حكم النبي محمد) كي ينقل الصورة واضحة عن الإسلام ورسوله؛ لتكون ردًّا على المتحاملين والمزورين المزيفين الذين يكتمون الحق من قسس النصارى ومن صار على نهجهم الفاسد ودربهم المظلم من الجهال الذين ألغوا عقولهم؛ فقبلوا الجهل على أنه حقائق مسلم بها.

وقد أخذ تولستوي هاته الأحاديث من كتاب عبد الله السهروردي الذي عرّبها في الهند، في كتاب سمّاه باسم الآية الكريمة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

يقول تولستوي عن القرآن الكريم:

«شريعة القرآن سوف تسود العالم لتوافقها وانسجامها مع العقل والحكمة * لقد فهمت* لقد أدركت* ما تحتاج إليه البشرية هو شريعة سماوية تحق الحق وتزهق الباطل».

- **أهم التواريخ في حياة تولستوي:**

١٨٢٨م	ولد تولستوي في يا سنايا بوليانا
١٨٣٠م	وفاة أم تولستوي
١٨٣٦م	انتقلت أسرة تولستوي إلى موسكو
١٨٣٧م	وفاة والد تولستوي
١٨٤١م	وفاة الكساندرا اوسكن ساكن الوصية القانونية على أسرة تولستوي. وينتقل الأبناء بعدها إلى قازان.
١٨٤٤م	يدخل تولستوي جامعة قازان قسم اللغات الشرقية.
١٨٤٥م	انتقل تولستوي في هذا العام إلى كلية الحقوق
١٨٤٧م	لم ترق تولستوي طريقة التدريس داخل الجامعة؛ فتركها وعاد إلى ضيعته ياسنايا بوليانا.
١٨٤٩م	أدى تولستوي امتحانًا للحصول على شهادة في جامعة بطرسبورغ.
١٨٥١م	في نيسان (أبريل) من هذا العام توجه تولستوي إلى القفقاس بصحبة أخيه نيقولا.
١٨٥٢م	في ٣ كانون الثاني من هذا الشهر ، أدي تولستوي امتحانًا كي يلتحق كضابط صف بالجيش. وفي نفس العام كتب قصته (الهجوم) ونشر الجزء الأول من ثلاثيته (الطفولة والصبى والشباب)، وكان بعنوان الطفولة، وذلك في مجلة المعاصر العدد التاسع.وفي نفس العام أيضًا بدأ في كتابة كتابه «ملاك روسي» وكتب أيضًا قصة «الصبا» التي تعد الجزء الثاني من ثلاثيته والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٤٥م.
١٨٥٣م	بدأ تولستوي في كتابة روايته القوزاق والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م. وفي العام نفسه كتب قصته ملاحظات مهدف بليارد.

١٨٥٤م	ترقى تولستوي في هذا العام إلى رتبة ملازم.
١٨٥٥م	في هذا العام بدأ في كتابة الجزء الثالث من ثلاثيته التي هي بمثابة السيرة الذاتية له، وكانت بعنوان «الشباب» وانتهى من كتابتها عام ١٨٥٦م. وبعدها كتب قصصه «سواستبول في كانون الأول» و «سواستبول في إيار» و «سواستبول في آب ١٨٥٥م». وبعد ذلك قام برحلة إلى بطرسبورغ لمقابلة بعض الشخصيات الأدبية الهامة.
١٨٥٦م	تم ترقيته إلى رتبة ملازم أول. وفي العام نفسه استقال من عمله في الجيش وعاد إلى ضيعته ياسنايا بوليانا. وتفرغ للكتابة فكتب قصة «العاصفة الثلجية» وكتب بعدها قصة «ضابط في سلاح الفرسان»
١٨٥٧م	سافر تولستوي في هذا العام إلى فرنسا وألمانيا وسويسرا، وفيه أيضًا كتب قصته «لوسيرن» وقصة «ألبيرت» التي انتهى من كتابتها في عام ١٨٥٨م، وفي ٣٠ تموز يصل بطرسبورغ، ثم يعود إلى ياسنايا بوليانا.
١٨٥٩م	كتب في هذا العام قصة ثلاث ميتات، وقصة سعادة عائلية، وفي نفس العام اتجه تولستوي اتجاهًا تربويًا حيث أنشأ مدرسة وسماها باسم ضيعته (ياسناي بوليانا)، وعمل فيها معلمًا لأبناء الفلاحين.
١٨٦٠م	في السنة نفسها وتحديدًا في الثاني من شهر تموز ذهب تولستوي إلى أوربا، وقابل هرتزن في لندن.
١٨٦١م	عاد إلى بطرسبورغ، وأقام في ضيعته ياسنايا بوليانا، وبدأ في كتابة روايته «الديمسبرويون» (غير تامة) وقصة بوليكوشكا والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م.

١٨٦٢م	في ٢٣ أيلول من هذا العام تزوج تولستوي من صوفيا بيرز ، وبدأ العمل في كتابه خولستومير والذي انتهى منه عام ١٨٨٥م
١٨٦٣ – ١٨٦٩ م	في ٢٨ حزيران من هذا العام شرع تولستوي في كتابة روايته الشهيرة الحرب والسلام. وفي نفس العام ولد أول أبنائه الثلاثة عشر.
١٨٧٠ – ١٨٧٢م	عمل على كتابة رواية حول بطرس الأكبر (غير منتهية).
١٨٧٢ – ١٨٧٥م	قام بنشاط تعليمي كبير من أجل التنوير، وكان ذلك في ضيعته ياسنا بوليانا، ثم طبع الكتاب التعليمي الأول ، وعقبه بكتب المطالعة الأربعة.
١٨٧٣ – ١٨٧٧م	كتب خلال هذه الفترة كتب رائعته آنا كارنينا.
١٨٧٨ – ١٨٧٩م	عمل على كتابة رواية حول فترة القيصر نيقولا الأول غير منتهية.
١٨٧٩ – ١٨٨٠م	قام خلال هذه الفترة بكتابة الاعترافات، وقام كذلك بنقد اللاهوت العقائدي الجامد.
١٨٨١م	كتب قصة «ما الذي يحيا به الناس» ثم انتقلت الأسرة إلى موسكو.
١٨٨٢م	كتب ما الذي أؤمن به؟، واشترى بيتًا في خاموفنيكي (موسكو).
١٨٨٥ – ١٨٨٦م	في خلال هذه الفترة كتب قصص لمجلة الوسيط التي أسسها (في. جي. تشير تكوف) بعد صداقته مع تولستوي.
١٨٨٦م	كتب قصة «موت إيفان إيليتش» ومسرحية «قوة الظلام» وقد منع أداؤها من قبل الرقابة.
١٨٩٠م	كتب في هذا العام «ثمار التنوير» و«سوناتا كرويتزر» (ولم يسمح بنشرهما إلا ضمن الأعمال الكاملة في سنة ١٨٩١م. وكتب أيضًا قصة الشيطان التي نشرت بعد وفاته، وفي نفس العام شرع في كتابه «الأب سيرجيوس» التي انتهى من كتابتها سنة ١٨٩٨م.

١٨٩١م	تنازل في هذا العام عن حقوق أعماله بعد سنة ١٨٨١م.
١٨٩١ -١٨٩٣م	هب للمساعدة في أعمال الإغاثة من المجاعة في إقليم ريازان.
١٨٩٢م	وزع في هذا العام كل أملاكه وممتلكاته على زوجته وأبنائه.
١٨٩٤ - ١٨٩٥م	كتب قصة السيد والرجل
١٨٩٦م	شرع في كتابة قصة الحاج مراد، والتي انتهى منها ١٩٠٤م.
١٨٩٨م	كتب كتابه ما هو الفن؟وعمل في الإغاثة من المجاعة في إقليم تولا.
١٨٩٩م	نشر رواية البعث
١٩٠٠م	كتب قصة «الجثة الحية» و «لا تقتل»، وتعرف في هذا العام على مكسيم جوركي.
١٩٠١م	حرمته الكنيسة الأورثوذوكسية من الإقامة في القرم.
١٩٠٢م	في ٢٧ حزيران من هذا العام عاد إلى ضيعته ياسانيا بولينا.
١٩٠٣م	كتب «بعد حفلة رقص» «الكوبون المزور» «شكسبير والدراما»، «ذكريات».
١٩٠٨م	إقامة احتفال عالمي بمناسبة ميلاده الثمانين.
١٩١٠م	في ٢٨ من تشرين الأول ترك تولستوي ضيعته ياسانيا بولينا؛ مغادرًا حياة الترف إلى التقشف وازهد والعيش في أكواخ الفلاحين البسطاء .
١٩١٠م	في السابع من تشرين الثاني يموت تولستوي في استوبوفو، ويدفن بعد يومين في ضيعته ياسنايا بوليانا.

المصادر والمراجع

- تولستوي ودوستيفسكي في الأدب العربي الدكتور ممدوح أبو الوي(من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩م).
- كتاب (اعتراف تولستوي) بقلم الأرشميندريت أنطونيوس بشير صاحب مجلة الخالدات ط/ مكتبة العرب بالفجالة بمصر ط ١٩٣٠م.
- حكم النبي محمد، لتولستوي، القاهرة، ١٩١٢، ترجمة سليم قبعين.
- المؤلفات الكاملة، لتولستوي، المجلد الثاني، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٤م.
- الأعمال الكاملة الإمام محمد عبده الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الثاني.
- الشوقيات لأحمد شوقي، الجزء الثالث، طبعة مكتبة مصر
- مذهب تولستوي، سليم قبعين مصر المكتبة الشرقية ١٩٠١
- ديوان حافظ إبراهيم ط١ مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة.
- تولستوي (مجموعة مقالات) مؤلفون، تحرير رالف ئي ماتلو ترجمة نجيب المانع طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة – ببغداد ١٩٨٦م.

الفهرس